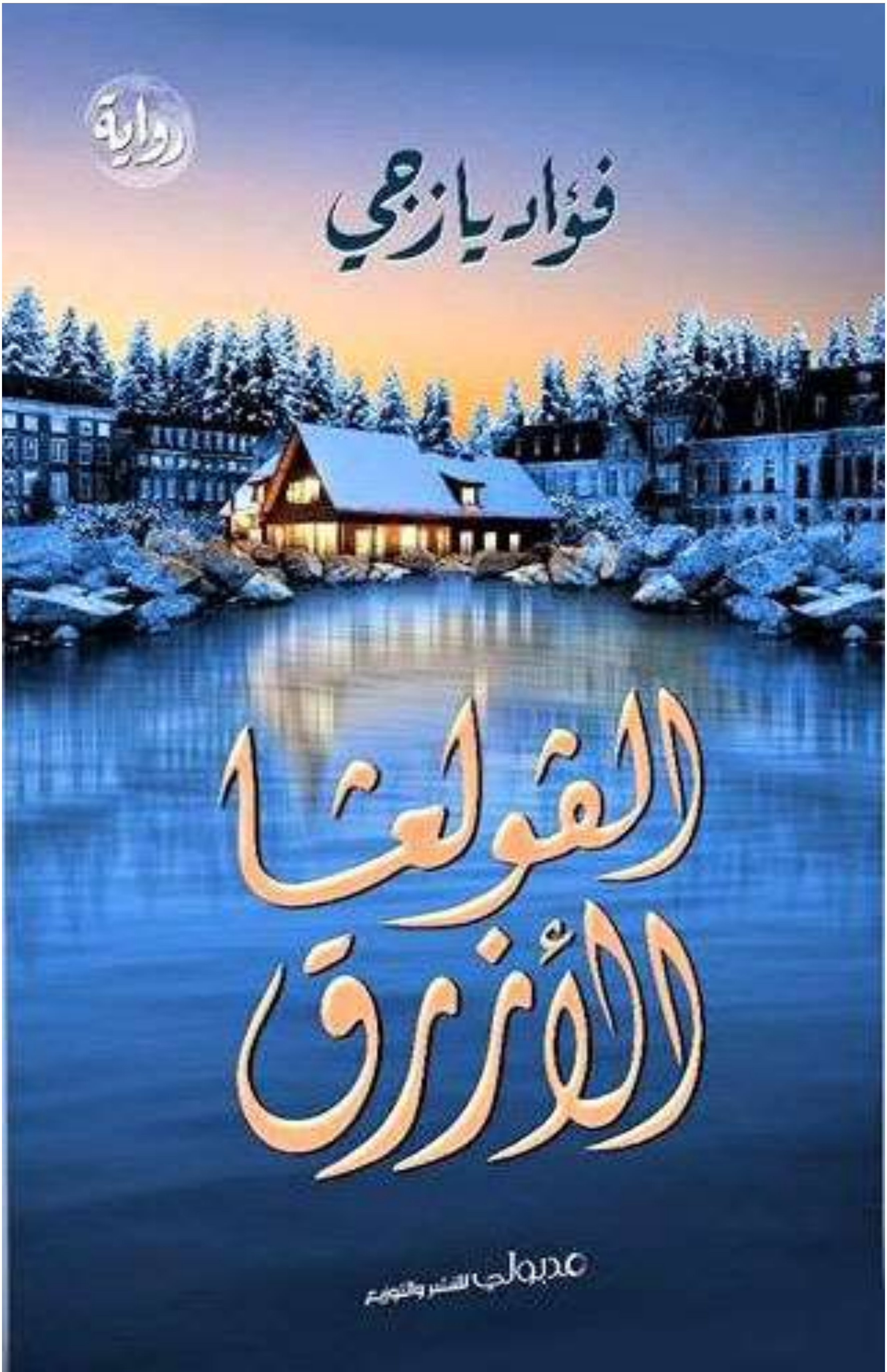

رواية
فؤاد يازجي
الفولغا
الأزرق
مدبولي للنشر والتوزيع

-------١-------------------------------------

كانت ناتاشا الكسندروفنا ترقد بجانبه في الفراش، لقد ارتضت لأول مرة أن تصحبه إلى غرفتها منذ تعارفا، شكِسة متمردة لا يقر لها قرار، كثيرة التجارب. تنفجر فجأةً ضاحكة، شقراء كأية روسية، عيناها خضراوان وقامتها ممشوقة، حجرتها جزء من بيت قرميدي تطل نوافذه على نهر الفولغا، فإذا ما وقفتَ على أحد جسور النهر تجد أنه آخر المنازل الممتدة على الضفة، وكان نضال الفلسطيني، شاعري اللفتة ذا وجه حالم وغريب في آن، يداعب شعرها ملقياً نظرات رتيبة من النافذة إلى النهر الغريب المسحور وهو يمضي هادئاً فاتناً لا مبالياً.

وكانت الغرفة مؤلفة من أثاث معظمه قديم، ثمة « حاكي » على منضدة ومن السقف يتدلى قفص يحوي كنارين، وعلى أرضية النافذة أُلقي ألبوم فيه صور غير ملونة وإهداءات مكتوبة بالإنكليزية والروسية والعربية ولغات أخرى، أما في الخارج فقد تمايلت أوراق الشجر برفق وقد غمرتها شمس خريفية تحت سماء زرقاء انعكست على صفحة النهر، وتبدت قوارب خاوية ملقاة على الضفة، وبعض الصبية يظهرون تارة ثم يختفون فيبقى النهر وحيداً يغزو القلب تدفقه تحت تلك الشمس الحزينة.

– هل تذكرين لقاءنا الأول؟ عصر ذلك اليوم نفسه الذي وصلتُ فيه من موسكو للدراسة، وكنت لا أجيد الروسية بعد، كنتِ تسيرين تائهة بين أشجار الضفة، تجرّين كلباً صغيراً أبيض مفتونة بالنهر وبالبيوت القرميدية الصفراء والزرقاء على ضفته الثانية، وكانت بيدك زهور حمراء وضعتِها عند قدمي تمثال بوشكين المحدق في السماء كأنه ينتظر منها أن تعيده إلى الحياة!

– ولم تقل شيئاً جعلتَ تحدق بي كأنني أحد الملائكة!

– كنتُ لا أزال أخرس كالنهر لا أجيد التحدث إلا مع الريح والموج وحجارة الشاطئ.

– هل أعجبتكَ هذه المدينة أكثر من موسكو.

– كانت موسكو قرية هائلة مليئة بالمطر، لشد ما كان هناك أشجار ورايات حمراء وترامات وملابس زاهية ونساء ضاحكات، قضيتُ في المدينة الباسمة ثلاثة

أيام ثم سار بي القطار إلى شاطئ الفولغا، ولكن كم فتنني النهر والجبال والأكمة التي ترقبه من بعيد لم أكن أتوقع حين قرأت عنه أنني سألتقي به ذات يوم، حييته بالعربية.. نظرت إليه نظرة عاشق أحب فتاته قبل أن يراها، ابتسم الفولغا ولم يقل شيئاً، ظل يترقرق مسافراً أبداً إلى نهاية العالم.

– ثم جعلتَ تومئ لي وتكلمني بالإشارات، كيف لي أن أرافق مثلكَ؟ هل تذكر كل شيء؟

– نعم، عصر ذلك اليوم البعيد، كان قرص الشمس البرتقالي ينعكس ببرود على صفحة النهر، يُقبل مياهه بحنان ورفق، وكان الضباب من بعيد يلف تعرجات الجبال، ويُسمع شجى طيور غريبة بين الأشجار، ثم انبثقتِ أنتِ كأحد الملائكة فعلاً أو هكذا خيل إلي على الأقل، كنتُ قد غادرت بلدي للتو، هارباً من عذابات يصعب أن تتصوريها، وفجأةً في ذلك المغيب الحالم تراءى لي أنني في الأبدية ومن يسكن الجنة غير الملائكة.

فقالت ضاحكة وهي تغرقه بالقبلات:

– أنتم العرب كالأطفال، قل لي: ماذا حلَّ بك بعد أن تركتك؟

– قصدت ضفة نائية، وجلست في جوف الليل قرب الموج والقمر في صمت عميق، ولم يعبر زورق أو ضوء، لم يكن هناك سوى عيني الشاخصتين الحالمتين بحياة أخرى جديدة، ثم رأيت ناراً بعيدة، فاتجهت إلى هناك فوجدت بعض الصبية يعبثون، فقصصت غصناً متشعباً جداً، عارياً، من شجرة يابسة واقتطعت أفرعه الكثيفة ولم أُبق سوى عشرين، عدد سنوات عمري، ثم أوقدتها من النار وجلست أتأملها في رهبة، ثم غرزتها قربي على الضفة، وكان النهر يجري حالك السواد، وأطفأتها جميعاً مردداً: سنة طيبة أيها الشقي.. وداعاً يا أيام العذاب.

– ثم ابتلعتكَ المدينة.. ولم أركَ إلا بعد خمس سنوات، ولكن أية حياة جديدة وأي عذاب؟

فقال متنهداً متأملاً بصوت جعلته المعاناة والذكريات رخيماً مدوياً:

– لقد كنتُ يا ناتاشا شيوعياً.

فانفجرت ضاحكة مقهقهة وقفز الكناران من مكانيهما، وأدرك هو كل شيء فظل هادئاً وقال:

– شيوعي في فلسطين معناه رصاص الإسرائيليين، وتنكيلهم، وليس وصولياً مترفاً كما هو الحال عندكم..

– حسناً تكلم.

فقال مستعذباً ذكرياته كأنه يخاطب نفسه وعيناه معلقتان على الشاطئ:

– ولدتُ في قرية قالت أمي « التراب فيها شيوعي »، وقالت أنهم غطوني بالآس في اليوم الأول، وأن والدي كان يجلس قربها وهي مسترخية على السرير، وقام فجأة وأسند كفيه على حرفي السرير فوقي وقال:

– قل إنك شيوعي.

ولم أقل شيئاً.

وضحك والدي: ستغدو شيوعياً لا محالة.

وقالت أمي بامتعاض: ولكننا لن نسميه لينين طبعاً.

إن أولى الذكريات اكتشافي أن اسمي أخوي هما « كفاح » و « جهاد »، وشوقي الشديد لمعرفة أسرار الكتب الحمراء التي يقرؤها والدي ثم يخبئها تحت السرير، ورغبتي العنيفة في معرفة ما الذي يجعله يقوم في منتصف الليل في البرد القارس ويحرق مثل هذه الأوراق. وتسللت ذات يوم إلى الغرفة فرأيت صوراً فظيعة مرعبة لآثار الحروق التي تفعلها قنابل النابلم الأميركية في أجساد الأطفال الفيتناميين. عندها أدركت أن كلاً من « نضال » و « كفاح » و «جهاد» ليسوا أحراراً في حياتهم وإنما معدون لقضية كبرى.

حرائق، أحزاب، فوضى عند كل شبر، يهود بلا رحمة، هكذا كانت ذكريات مراهقتي، فكنت أتساءل لماذا يعيش الإنسان؟.. لماذا؟ كان كل ذلك يجعلني أنأى ويرميني في وحدة حزينة وحالمة، وكنت أشتري مجلة سوفيتية وأقرأ ركناً للرياضة، ونظرت يوماً إلى الصفحات الباقية وأصبحت الثورة تغلي في دمي، وأسمع خطوات القدر تدب ورائي.. ودخلت قصر الشتاء مع العمال والفلاحين.. جاءت الأوامر من سمولني.. عبرنا نهر النيفا في بطن الليل، لهيب ومدافع وخوف، ورصاص يئز على

الثلج.. جردنا البورجوازيين المتخمين من السلطة ونساءهم البليدات من الحلي وصحنا « العدالة فقط يا رفاق ».

فماذا حلَّ بأخوي؟ إن كفاحاً الآن في السجن وجهاداً هارب في دمشق، أما والدي فهو يقضي شيخوخة بذراع مزقها لغم، ووالدتي منكودة لم تر أبناءها من زمن طويل.

فقالت وقد تبدلت سحنتها دافنةً رأسها في صدره:

- كم أنتم مشتتون وضائعون!

- الفلسطيني لا موطئ قدم له ياناتاشا.. ولا جواز سفر « يريد هويةً فيصاب بالبركان » وهذه العبارة لمحمود درويش الذي أعطيتموه جائزة لينين، حسناً إسمعي ماذا يكمل:

لم يكذب علي الحب
ولكن كلما مرت خطاي على طريقٍ
فرَّت الطرق القريبة والبعيدة
كلما آخيت عاصمةً رمتني بالحقيبة
.... وأعدُّ أضلاعي
فيهرب من يدي بردى
وتتركني ضفاف النيل مبتعدا
وأبحث عن حدود أصابعي
فأرى العواصم كلها زَبدا

وغلب على وجهها القنوط فاستدار نحوها وجذبها إليه باسماً:

- إنصتي أهناك تعبير أجمل من هذا، وبدا كأنه يخاطبها:

لا تتركيني شاحباً كالقمر
... لا تتركيني ضائعاً كالحجر

فقالت:

- ولكن ألم يكن هناك طريق أقل مرارة من هذه؟

– إنني غير نادم ياناتاشا، إذا كانت في نفسي ذرة من الإنسانية فإنني مدين بها إلى الشيوعيين الذين علموني العطف على الفقراء.

– بالمناسبة هل سمعتَ صوت لينين في يوم من الأيام؟

– لم يحدث.

فنهضت من الفراش وسارت إلى الحاكي عارية، بيضاء، مكتنزة، وأدارت اسطوانة قديمة مغبرة ثم هرعت إلى السرير واندست إلى جانبه من جديد قائلةً:

– هذا خطاب ١٩١٩.

وأرهف أذنيه، ولكنه لم يكن ذلك الصوت المهيب الذي توقعه، بدت له بحة إنسان متعب جداً وعجوز وغير واثق يتحدث عن ماهية السلطة السوفيتية، وترك الإسطوانة تدور وتدور ماراً في ذاكرته شريط حياته في روسيا، وازداد تمايل الأغصان في الخارج، كانت الريح تسوق غيوماً كثيفة، ومياه النهر تتحول تدريجياً إلى رمادية، رذاذ بطيء بدأ يتساقط على الزجاج وأقفر الشاطئ.

– ها قد انتهت الإسطوانة قل الآن بماذا كنت تحلم؟

– كنتُ أتساءل هل مات لينين ولم يترك وراءه سوى البغال!

فابتسمت كأنها تطلب منه أن يتابع فقال:

– كم الفرق شاسع بين أن يكون المرء شيوعياً في الوطن العربي وبين أن يكون كذلك في الاتحاد السوفيتي، لطالما بحثت عن شيوعي حقيقي خلال الخمس سنوات الماضية، فلم أعثر سوى على رجال صارمين قمعيين يسترون بتجهمهم انفلاتاً كاملاً وفضائح وصراعاً على النفوذ إلى حد قطع الأعناق...

– أكمل.. أكمل قل كل ما في صدرك.

– كانت أولى المفاجآت في اليوم الثاني لوصولي، وكانت لا تزال الأفكار الماركسية تشتعل في عروقي: العدالة، البروليتاريا، تقسيم الخبز بالتساوي، وكنت أحلم منذ كنت في فلسطين بتثبيت صورة لينين على الحائط، حيث كان يبدو هذا غير عادي وخطراً هناك، وعند الظهر عندما جاء الروسي الذي يشاركني الغرفة ورآها نظر إلي بسخرية وأومأ إلي بأن أنتزعها وأضعها في المرحاض، ولم يتمهل حتى أجيبه فأزاحها بنفسه وهو يضحك ورمى بها من النافذة إلى سفح الجبل، فغادرت الغرفة

مكروباً شديد التوتر وطفقت أبحث عنها بين الأشجار، وكان مبنى الطلبة يطل على جبل بشتاو الرهيب الساحر المغطى بالشجر الكثيف إلى حد أنها تلامس حائط المبنى، ففي الصيف كانت تغمره الخضرة والنسائم إلى درجة يخال معها الجالس على شرفة أنه جزء من الفردوس، وعندما يأتي الخريف فإن جميع تلك الأوراق تنقلب صفراء يغرقها الضباب والأمطار، حتى إذا ابتدأ الشتاء تصبح الأشجار عارية شوهاء يلفحها الضباب بشدة وتزعق فوقها الغربان ثم يتساقط فوقها الثلج فيبدو الجبل أبيض من قمته حتى سفحه، لشد ما أحدث أثراً عميقاً في نفسي تعاقب الفصول عليه خلال السنوات الخمس التي مرت، باختصار وأثناء بحثي عن الصورة عثرت على شيخ مبتور الساق يسير على عكازين ويجمع الزجاجات الفارغة التي يرميها الطلبة الأجانب، وكان آخر صحيح الجسم ينافسه على جمعها، فتعجبت كثيراً، أهناك بؤساء إلى هذا الحد في مدينتنا؟ ولما يئست من العثور على الصورة سلكت الدرب إلى المدينة، فطالعني تمثال لينين في ساحتها، فكدت أنحني إجلالاً، وكانت زهور كثيرة حمراء وصفراء قد وضعت عند قاعدته، ثم انتهيت إلى حديقة النهر، وكانت تحوي مراجيح كثيرة وتماثيل وصالة للرقص ونادياً للشطرنج ومسرحاً صغيراً، وسينما دون سقف تُعرض فيها حفلة واحدة في الصيف عندما يحل المساء. كان مشهد المدينة أنيقاً ونظيفاً وبسيطاً بل يمكن أن يقال إنه ساحر يخترقها نهر وديع رائق تحط على أمواجه طيور بيضاء رومانسية. وتحيطها جبال وهضاب وأكمة خضراء كأنها لتكمل ذلك الرونق الإلهي، كان الصيف في نهايته وكل شيء يبدو كامل الروعة، تجولت عند التماثيل وعبرت الجسور وقصدت الميناء النهري حيث ترسو سفن أنيقة ثم رددت طوبى لكِ يا روسيا.

وعند العصر قفلت عائداً إلى السوق لأشتري طعامي، فوجدت مخزناً كتب عليه « حليب . خبز » تديره إمرأة واحدة تجلس وراء صندوق النقود، يقف بانتظار الدفع أمامه طابور مؤلف من عشرين شخصاً تصل نهايته إلى صندوق القمامة على رصيف الشارع، فتجاوزته ودخلت مخزناً كبيراً للأطعمة كتب عليه « سوبرماركت »، ولكن رفوفه كانت جميعها فارغة إلا من السردين والبيض والبسكويت، ومن نوافذه لمحت صفاً طويلاً من الناس يتجاوز الثلاثين شخصاً قرب تمثال شاهق لـ «

درجنسكي »[1]، فاتجهت إلى هناك فوجدتهم يبيعون على مصطبة في الشارع لحم خنزير مجففاً، وهذا كل شيء لم يكن في السوق أي طعام آخر، فسألت عن الخضار والفواكه فأشاروا إلى بازار يقع منفرداً خارج السوق لا تملكه الدولة يحوي عنباً وتفاحاً ورماناً ولوزاً وفطائر ساخنة... وكان البائعون أذربيجانيين ويهوداً وشركساً ذوي شوارب غليظة سوداء وملامح أسيوية قاسية أسعارهم مُريبة لا يقوى على الشراء منهم سوى أغنياء البلدة، ولكن من ترى هؤلاء الأغنياء؟.

فصاحت مقهقهة:

– إنهم الشيوعيون الذين تعبدهم.

– فدخلتُ إلى مخزن ضخم للألبسة مؤلف من ثلاثة طوابق فوجدت من الثياب المعروضة والأحذية ما يأنف أن يلبس منها عربي فقير، فعدت إلى الحجرة كئيباً تعتصر المرارة نفسي متسائلاً هل المدن السوفيتية كلها على هذا النحو؟ وزارني طالب قديم عند المساء، وكان مبنى الطلبة يحوي طلاباً عرباً كثيرين وأفغانيين وزنوجاً وروساً ومن أميركا اللاتينية وقال لي إن الاتحاد السوفيتي هو البلد الذي لا يوجد فيه غير البيروقراطية والثلج «ولكن ما دمتَ شيوعياً لن تصدق حتى ترى بنفسك ».

لقد تركني مكروباً أكثر بكثير مما كان يظن، لقد رأيت في حياتي من ضروب البؤس والخيانة والقلق ما يجعل أشد المتفائلين يائساً، وكانت الشيوعية الأمل الوحيد الباقي لي على الأرض، المرة الوحيدة التي آمنت فيها بالدولة، ولم أكن أريد لهذا الحلم أن يتبدد، ولهذا الخلاص أن يضيع، فوافقتُ أن أرى كل شيء.

ورافقني في اليوم التالي إلى الحي البروليتاري، كان كثير من العمال يعيشون في مبنى عام، ويقطنون كل ثلاثة في غرفة واحدة، وكانت هناك بيوت كثيرة لا يصلها الماء، فكانت النسوة يذهبن إلى صنبور بعيد عند مدخل الحي ليجلبنه، وأراني كثيراً من النسوة يغسلن الملابس في النهر، ثم مضى بي إلى المستشفى حيث رأينا طوابير مروعة عند المدخل، ومن هناك زرنا ثلاثة مطاعم وكافتريا وثلاث سينمات

[1] – رئيس المخابرات في عهد لينين .

وورش إصلاح الأحذية والساعات وأماكن الحلاقة ومحطة القطار ولم يكن هناك سوى طوابير وطوابير لا نهاية لها ولا تنقطع.

قدمت بيني وبين نفسي طلب انسحاب من الحزب الشيوعي وأبقيت الأمر سراً في البداية، وشعرت بحرية غير معهودة، ما أروع فقط التحديق في العالم والنظر إليه كيف يتناحر وكيف يحترق، وبقيتْ ذكرى جميلة.. كنت شيوعياً.. كنت أريد أن أبدأ الحياة من جديد، لم أكن بحاجة أبداً إلى تناقضات جديدة وعذاب، لقد مرت عشرون سنة لم أتعلم فيها أبدأ السعادة... هل تعتقدين أنني خائن ياناتاشا؟ هل تظنين ما فعلته دناءة روحية؟

- لا تنسى أن رياح القرون تمر وتذرو معها كل النظريات والأفكار والأحقاد، والمجتمعات تتبدل وتتبدل بالتالي الحلول، لا يوجد مفكر تستمر أفكاره إلى الأبد. لقد جاء ماركس في وقت كان في أوروبا تعمل فيه الفتيات تحت سن العاشرة في مناجم الفحم البلجيكية، هل الرخاء الآن يمت بصلة إلى ذلك العهد؟

- ومع ذلك كنت لا أزال أرتعش، لم أكن أتصور أن حياتي ستكون بصورة ما بعيدة عن الأفكار الماركسية، وعند قراءة أية مقالة في جريدة أو مجلة أو النظر إلى لوحة على حائط لكاسترو أو غيفارا كنت أجد نفسي ما زالت تنساق تلقائياً إلى التعاطف مع السوفيات وأحس الحنين القديم واللوعة نفسها اتجاه الشيوعية.

- كنتَ بحاجة إلى وقت.

- وهذا ما حدث، لقد نسيت أخيراً وتدريجياً، ولم يكتمل ذلك إلا منذ بضعة أشهر فقط حيث بدأت أحس أنني وحيد ويائس ودون إله، كمن يسير في صحراء أينما يبكي ستذهب دموعه في رملها..

وانساب الليل وراء الزجاج، وقامت وأشعلت النور ووضعت ماء في السماور الكهربائي، وأخذت تدندن أغنية روسية شائعة:

بين زهور الدلفى

في الحقول عند ساقية

شاباً يافعاً أحببت

وقد كان يعيش غافلاً

عن أن فتاة صغيرة تفكر به

وعادت إلى السرير وارتمت في أحضانه بينما كان يقلب صفحات الألبوم الموضوع على النافذة، وسألته:

- ألم تحب حباً حقيقياً في يوم من الأيام؟

فعادت إلى عينيه الذكريات من جديد.

- نعم وكنت في السابعة من العمر وهي في السادسة.

فانفجرت من جديد ضاحكة.

- حسناً، سأكف عن قول أي شيء عن نفسي.

وأشار إلى صورة زنجي في الألبوم ملتصق بها وورائهما مرآة:

- من هذا؟

- إسمه تِمبو من أوغندا وأنا أسميه شوكولاته.

ولوح برأسه ثم أشار إلى شاب طويل ذي لحية سوداء يقبلها أمام مبنى عال وقال:

- وهذا؟

- إنه شامِل من داغستان يدرس في قسم الصيدلة، في البناء الذي يظهر وراءنا.

وأشار إلى آخر ذهبي الشعر يعانقها على ظهر مركب فقالت:

- هذا اندريه ميخالوفتش من كييف وهذا بحر البلطيق، حيث زرنا جمهوريات البلطيق الثلاثة.

ولم يطق صبراً فأغلق الألبوم، كانت صداقتهما قد ابتدأت منذ أسبوع فقط، وقد لحظ أنها سهلة الانقياد، ولكنه تخلى فجأةً عن وقاره وهتف:

- هل ضاجعك كل هؤلاء؟

- ماذا تقصد أنهم ضاجعوني؟.. لقد كانوا أصدقائي في يوم من الأيام مثلما أنت الآن.. وقد ترك كل منا الآخر.

وقال وهو يغادر السرير:

- يقولون المرأة الروسية لا تعرف الحب.

- هذا هراء من الشوارع، كل شعب يملك حياة روحية معينة، ولكن مفهوم الحب يختلف عندكم عما هو هنا.

فدمدم وهو يرتدي ملابسه:

- يقولون لكل إمرأة روسية زوج وعشيق وزنجي.
- هراء.. اصبر....
- وداعاً.
- عُد أيها الأحمق.

وأغلق الباب وراءه فهتفت:

- إلى الجحيم.

وعادت تغني:

بين زهور الدلفى
في الحقول عند ساقية
شاباً يافعاً أحببت

سار محاذياً الضفة، تساقط رذاذ بطيء على خديه، نظر إلى مياه النهر الكالحة وقد سقطت عتمة الليل على صفحته، وعكست أضواء واهنة لفوانيس الشاطئ.. مشى وحيداً على الحصى ووجد نفسه تخاطبه ورأسه مثقل بدوار محيط عنيف من الهواجس: « كيف استيقظت في نفسي صفات البادية فجأةً وأنهيت كل شيء في لحظة؟ أليست كغيرها من الروسيات؟ ربما لأنني كنت أبوح ما بقرارة نفسي، أو ربما لأنه لم تتحدث إحداهن عن غرامياتها أمامي، ومع ذلك كم أنا مكروب.. لا تزال قبضة العالم الثالث تعتصر روحي ».. وازدادت غزارة الرذاذ دون أن يعبأ به بل أخذ يردد يائساً نشيداً قديماً تعلمه في المدرسة الإبتدائية:

تساقط المطر على الطين
نحن أولاد فلسطين
فلسطين بلادنا
واليهود كلابنا

وتذكر من تلك المدرسة صورة بريئة لصديقة له في السادسة من العمر سرعان ما تلاشت وتاهت في الظلمة، فأخذ يهذي طيلة الطريق المتبقي إلى مبنى الطلبة، لقد غلب عليه التشاؤم في بداية مراهقته عندما أحسَّ أن الحياة بلا معنى، ثم وفي مرحلة متقدمة رأى أن الكفاح هو معنى الحياة، ثم عاد ووجده ليس إلا عزاء. جاءت لحظات شعر فيها أن العالم متوازن كامل أما الآن فعادت تموج به السفينة وعاد يشعر بالدوار.. «لماذا أعيش أيها النهر؟» ها هو السؤال الذي طالما عضه في مراهقته يعود من جديد، نعم خمس سنوات مضت وهو دون آلهة والآن حان موعد الهذيان القديم: « ما الإنسان سوى غريب ووحيد وحزين في كوكب شريد يسبح في الظلام قل إذن أيها النهر، يا من سرتُ على شاطئك تحت المطر وتحت الثلج، في الليل وفي النهار، بين الشجر وعلى الصخور: من أنا؟ ولماذا أعيش؟ ».

ولم يقل النهر شيئاً.

كانت المصابيح تقل والمياه توغل في العتمة: « كم جرَّح قلبي هذا السؤال في الماضي وأنا أتأمل فوضى العالم، إلى أن غدوت شيوعياً فظننت أنني على سفينة الخلاص، نعم يا كازانتزاكيس إن أسمى الأفكار لو بُقرت بطونها لتبينا أنها ليست سوى دمى محشوة بالنخالة، وتجد نابضاً من التنك مختفياً في النخالة ».

---------------------------------- ٢ --------

كان مبنى الطلبة مؤلفاً من خمسة أدوار، يقطن كل حجرة من حجراته أربعة أشخاص، غالباً ما يكونون من بلد واحد، وكانت المراحيض تقع في نهاية الممرات، قذرة، مكتظة بالصراصير، ولم تكن الغرف أفضل حالاً أو المطابخ، كان المبنى باختصار قديماً لا شيء إيجابي فيه سوى إطلالته على جبل بشتاو. وكان الحمَّام الذي يقع في القبو عاماً مشتركاً، أي بدون عوارض تفصل بين المستحمين، فكنتَ تقف تحت الدوش وتجد كثيرين آخرين عراة مثلك يستحمون بلا مبالاة، زنوجاً وروساً وصُفراً مثل كثير من الحمامات الروسية، وقد تقبَّل العرب هذا الوضع كأمر لا مفر منه ما عدا الأردني فيليب – الذي سيجد نضال حال وصوله إلى المبنى أن غرفته قد سُرقت – فكان يذهب إلى حمام في المدينة مقسم إلى حجرات، أما مدخل حمام الطالبات فكان مجاوراً للآخر، وكانت تُسمع بشكل دائم أصوات مياهه وضحكات النساء، مفتوحاً دائماً بحيث لو خطر ببال أحدهم أن يدخل فسيجد نفسه بينهن عاريات، وقد لا يصرخن بل سيقمن بطرده قائلات كم هو عار عليكَ. وكان القليل من الدارسين الأجانب من الشيوعيين المتحمسين إذ أن الأكثرية قد حصلوا على المنحة الدراسية بطرق شتى ملتوية، وكان أحد هؤلاء الشيوعيين النادرين « زاهر » اللبناني.

عندما وصل نضال وجد ثلاثة من الشرطة يغادرون البوابة، فقصد غرفته متهالكاً، يريد أن يرمي نفسه على أي سرير ولكنه فوجئ بالروسيين اللذين يشاركانه الغرفة يلعبان الورق مع آخرين من حجرة مجاورة فامتلأ بالغيظ وقصد غرفة زاهر.

فما إن شاهده وحيداً هناك حتى دمدم:

– زاهر.. ألا توجد هنا عيادة للأمراض النفسية؟

وتهالك على كرسي مغمض العينيين وأحنى رأسه حتى كاد يلامس المنضدة، وقام اللبناني يتأمله ثم جلس أمامه إلى المنضدة فأصبحا وجهاً لوجه وقال:

– الحالة نفسها تقريباً.. ما بك اليوم؟

– لست أدري.. شعور كتأنيب الضمير يمازجه يأس وفراغ روحي يُدمي القلب.

– والسبب ليس مجهولاً والدواء أيضاً.. لطالما كررنا.. عد إلى اجتماعاتنا.. أشعر بأنك تضيء شمعة في ليل الوطن العربي الحالك.

– عُدت تتكلم وكأنك بافل كورتشاغين [1].. يا للسذاجة.. ومع ذلك ولسبب غريب فإن مثل هذا التوقد يعيد إلي التوازن.

فحدق في عينيه نصف المغمضتين:

– سذاجة!؟

فأجاب:

– من يتكلم عن الشيوعية الآن وغورباتشوف في الحكم؟ كانت الثورة البلشفية حمامة بيضاء تبشر ببدء زمن جديد، ترفرف مودعة عصور الفقراء والأغنياء والملوك والطغيان، كانت حُلماً مجرد حلم..

– ما به غورباتشوف؟ لقد جعل الصراحة والعلانية شعار أجهزة الدولة، لقد وضع خطة لتسريع عملية الإنتاج، إن الدوائر الحكومية تُحقن بدم جديد نظيف.

فقال بيأس:

– حقاً! فبماذا تفسر إذن إقالة غروميكو وأربعة آخرين من اللجنة المركزية؟ تأكد لن تمر سنتان حتى لا يبقى في العالم سوى شيوعي وحيد هو أنت.

– ذات ليلة، على مياه البحر الأسود الكالحة، وفي زورق وحيد ضال يقول ناظم حكمت لبدر الدين[2]:

– يا بدر الدين!

فوق الأشرعة الغافية

لا نرى شيئاً غير النجوم

لا همس في الهواء

لا هدير في البحر

ماء أبكم مظلم فقط

يغط في نومه

---

[1] – بطل رواية : " كيف سقينا الفولاذ " نموذج أصيل للشيوعيين الذين وهبوا حياتهم للسلطة السوفيتية عندما كانت في مهدها .

[2] – فيلسوف تركي دعا إلى إلغاء الفوارق الطبقية والدينية والاجتماعية . وهنا يبدو الشاعر حالماً بصحبته .

ضحك الشيخ القصير الذي لحيته أطول منه وقال:

- لا تنظر إلى سكون الهواء

ينام البحر وينام ثم يصحو

كم أنشدنا هذه القصيدة سوية في لقائنا الأول في موسكو، وكم سخرنا من اليائسين والمترددين وكم رددنا في الشوارع سنبقى نحن الاثنين على حالنا ولو لم يبق شيوعي آخر على الأرض، لشد ما كنا فرحين بلقائنا وبالعاصمة الزاهية، هل نسيت؟ إن الدموع لترقرق من عينيَّ...

فأسند مرفقيه على المنضدة وأخفى وجهه بينهما ثم قال بسكينة:

- لقد جَرَتْ من يومها وحتى الآن تحت الجسورِ سيولُ، لقد اكتشفنا أشياء لا تخطر على بال، هل رأيت بلداً في العالم تؤجر فيه سيارات الإسعاف كتكسي؟ هل رأيت بلداً في العالم ينجح فيه الطالب دون أن يكون عنده كتب [١]؟ هل رأيت بلداً تتبع نساؤه الأجانب لمجرد أنهم يملكون علب سجائر أميركية، أصبحنا نتساءل أهذه هي الثورة التي يسدد من أجلها الاتحاد السوفيتي رؤوسه النووية على العالم؟ إنهم اقتصادياً صفر.

- ونحن نعلم حجم المساعدات التي يدفقونها على العالم الثالث، وكمية الأموال التي تُهدر على السلاح للدفاع عن الثورة...

فقاطعه بحدة:

- بل لنعترف بأن الملكية الخاصة هي التي تجعل الإنسان الغربي يعمل بأقصى طاقته، مصلحته، وأنانيته، تدفعانه إلى الإبداع، وإلى تحمل المشاق، بينما الجميع يعلم أن العامل الروسي لا يعمل أكثر من ثلاث ساعات من أصل ثمان يقضيها في المصنع لاهياً.

- لقد أرادوا توعيته، وحثه على العمل عن طريق تعريفه بواجبه، إن « تربية إنسان جديد » مدونة في كل مكان كأحد أهم شعارات الدولة، إنهم لا يريدون بناء

---

١ - كانت الجامعات السوفيتية نادراً ما تجعل طالباً يرسب خصوصاً إذا كان أجنبياً ، وقد بلغ استهتار بعض الأجانب إلى حدّ أنهم كانوا يتبجحون أنهم اجتازوا الامتحانات - التي غالباً ما تكون شفوية - دون أن يعرفوا أسماء المواد .

حضـارة تعتمـد علـى القرصـنة والعبيـد والمسـتعمرات، وهـذه أبسـط مبـادئ الماركسـية اللينينية هل نسيت؟

فقال بادياً على وجهه الارتياح:

– وصلنا إلى جوهر الموضوع « تربية إنسان جديد »، وهذا الأمر نبيل إلى حد القداسة، إن جميع الحضارات حتى الآن بنيت على السرقة كما أنها لم تستطع أن تستمر دون عبيد كما يقول ويل ديورانت، ولكن إلى متى ستستمر تربية الإنسان الجديد لكي يصير ملاكاً يفكر بأخيه ووطنه مثلما يفكر بنفسه؟ إنه بحاجة إلى نصف مليون سنة وهي نفسها المدة التي استغرقها القرد حتى تحول إلى إنسان، وقد تقول لي « لابأس.. ليكن » ولكن ليس لدى الروس وقت كبير، إن الغربيين يتضاعف ثراؤهم سنة بعد سنة، حتى ليقال إن دخل الأميركي أكثر من الروسي بخمسين مرة، والآن يُعدون لحرب النجوم في الوقت الذي صرَّح فيه المستشار السوفيتي منذ مدة « لقد وصلنا إلى حافة الإفلاس »، ستزول الدولة السوفيتية عاجلاً أم آجلاً ولا وقت لتربية إنسان جديد يا عزيزي وسترى بنفسك وتتذكرني، ستُصلب كما صُلب المسيح، وستبقى ذكرى، لأن جو الأرض كما يقول كازنتزاكيس خانق وأثمن البذور لا يمكن أن تعيش فيه، ستبقى ذكرى كما هي حال كومونة باريس، ستبقى تجربة استفادت منها الأرض ربما لتعود من جديد عندما يكف الإنسان عن أن يكون مفترساً.

– لا يسعني سوى أن أكرر لك قول ناظم حكمت:

ينام البحر وينام ثم يصحو

ولا تنسى أن منحتك مجانية فأنت تتعلم على حساب الشعب السوفيتي وبالتالي فأنت مطالب بشيء ما.

– تقصد من يأكل من خبز السلطان يحارب بسيفه.

– طبعاً من تأكل من تمره تأتمر بأمره.

– معنى ذلك أن هذا ليس العالم الجديد.

– لم نصل إلى زمن الشيوعية بعد، وإذا تهربت من دفع الضريبة تأكد لن تنجو من دوامة العذاب التي تنتابك، عد إلينا ولننشد كما في الماضي يداً بيد:

شيوعيون نحن
نحن عالماً جديداً نبني
من كان لا شيء
أصبح كل شيء [١]

– كان الحلم أحلى من الحقيقة.. « لقد تحطمت سفينة الحب على صخور الحياة اليومية»[٢].

ودخل ثلاثة لبنانيين يشاركونه الغرفة وقال أحدهم:

– لقد سُرقت غرفة المؤمن العتيد.
– لقد سرقوا له حتى الحذاء ينتعله.. يا للسخرية.. يسرقون حذاءً قديماً!
– وغادر الشرطة للتو قائلين لن يحدث مثل هذا في ظل الشيوعية.

فقال زاهر:

– هل تذهب لنراه؟
– هيا بنا.

رد نضال، وسرعان ما صعدا إلى الطابق الخامس، نحو غرفة تجاور المراحيض، كان فيليب قد عزل سريره في ركنها بوضع الخزانة عند نهايته وتثبيت ستارة عند الطرف الآخر مكوناً ما يشبه حجرة صغيرة هرباً من الجحيم الذي قد يسببه له ثلاثة آخرون يأكلون ويشربون وينامون ويستقبلون الأصدقاء ويسمعون الموسيقا ويتناقشون ويلعبون الورق، أما هو فكان يقول إنه فعل ذلك هرباً من روائح المراحيض التي غالباً ما تلفح الغرفة عندما يُفتح الباب ويُغلق، وكان أيضاً لا يأتي إلى الحجرة إلا نادراً فكان يقضي معظم وقته في المكتبة الواقعة في الطابق الأرضي، حتى إذا أنهى دروسه أخرج الكتاب المقدس وظل يقرأ إلى الثانية عشرة ليلاً حيث يقوم الحاجب بقطع الكهرباء عن المبنى كله وإغلاق بابه حتى يتسنى للجميع الاستيقاظ صباحاً في أوقات الدوام.

---

١ – نشيد العمال العالمي .
٢ – ماياكوفسكي .

لقد ظل يردد طيلة أيامه الدراسية أن تلك الأعوام كانت من أشق سنوات حياته، وعندما يُسأل ما الذي يجعله يبقى هنا؟ يجيب أن الله يمتحنه. وكان كل من نضال وزاهر وفيليب ومراد وثلاثة آخرين من أميركا اللاتينية في صف واحد من كلية الهندسة، وكان مراد هذا طالباً سورياً غريب الأطوار يوصف بأنه نيتشوي، لا يغشى مبنى الطلبة على الإطلاق، يبيت عند صديقاته وعندما يطردنه يستأجر غرفة أو ينام تحت جسر أو في محطة القطار. ودخل نضال وزاهر فوجدا فيليب مستلقياً، شاحباً، فجلسا عند ركن السرير بينما ظلت الستارة مغلقة تحجب أردنيين يكتبان، وقال زاهر:

- عسى لم تُسرق منك أشياء ثمينة.
- فجلس مسنداً ظهره على الحائط:
- لا.. لأنها لا توجد.. لقد أخذوا معطفي ونعلي وحقيبتي وجهاز التسجيل القديم، وبعثروا ملابسي خرقة خرقة، حتى الفراش كان مقلوباً.
- لعلهم من المبنى نفسه.
- لست أدري.. لقد صليتُ لأجلهم منذ قليل لأنهم يزرعون الريح فلن يحصدوا إلى العاصفة.
- صليت!؟
- لأنني مدرك عمق الرعب الذي يغشى أيامهم، لأنني أدري أي عذاب ووحول يتخبطون فيها، إن اللصوص لا يحصلون من الدنيا سوى على الفتات ولو كانت الأموال التي سلبوها كبيرة، لأن أرواحهم دائماً في غربة.

وقال نضال:

- لا تبدو حانقاً البتة!
- الشيوعية هي التي تُعلم الحنق على الأغنياء، وبالتالي تعتاد النفس الحقد، أما المسيحية فتعلم المحبة فقط.

جاء الإثنان ليواسياه فوجداه أكثر ثقة وهدوءاً وحبوراً منهما وأكمل:

– المحبة تتأنى وترفق، المحبة لا تحسد ولا تتباهى ولا تنتفخ ولا تأتي قباحة ولا تحقد ولا تظن السوء ولا تفرح بالظلم بل تفرح بالحق وتحتمل كل شيء وتصدق كل شيء وترجو كل شيء وتصبر على كل شيء.[١]

فقال زاهر:

– أتظل مؤمناً في عصر كهذا تسيطر فيه الشيوعية على أوروبا الشرقية والعلمانية على الحضارة الغربية؟ كيف يمكنك ذلك؟ أنت وحيد، وحيد، وواهم مع نفر قلائل مثلك.

– وهذا لا يروعني لأن يسوع ظهر من بلد فقير مستعمَر فتركَتْ روما معتقداتها وجبروتها وأخذت بتعاليمه.

وقال نضال:

– خمس سنوات لم تغير فيك شيئاً، خمس سنوات ولا تزال على أقوالك.

– أبعد أن رسا مركبي على ساحل الخلاص، وهدأ قلبي في مياه صافية هل أذهب إذن إلى ساحة الثورة وأسجد عند صنم لينين؟ لقد سرت في العتمة طويلاً فهل أعود إلى تلك المغاور؟ لقد ضعت في غابات موحشة من الخطايا لا تخطر لكم على بال فهل أتردى فيها من جديد؟ لإيماني سلاسل متينة فطيلة الخمس سنوات التي تتحدث عنها كنت أجوب القرى والقفار والمدن بحثاً عن كنيسة حقيقية ومصلين حقيقيين أقول لهم يا أخوتي، إنني أعرف كنائس المنطقة كلها التي حولنا. لقد دهشت في العام الأول لوصولي من أن الروس لا يعرفون ما هو عيد الميلاد، ولما كان من حولي بأكملهم ملحدين عتاة، وكنيسة المدينة خَرِبَةْ تجري فيها الإصلاحات، أخذت أبحث عن كنيسة مجاورة في مكان ما، كان ذلك عشية عيد الميلاد، وكان قلبي يرفس بقوة في صدري يبحث عن صلاة وبخور وتراتيل، ومؤمنين أشاركهم المحبة بالمولد العظيم، فدلني العجوز المبتور الساق الذي يجمع الزجاجات على كنيسة صغيرة تقع خلف جبل بشتاو، كان العصر قد حل وأية حافلات لم تعد تذهب إلى تلك القرية، وكانت درجة الحرارة ثلاثين تحت الصفر، وكان الجليد والثلج يغطيان كل شيء، وكانت الأشجار جرداء وبيضاء يعضها الصقيع تزعق فوقها

---

[١] – بولس .

بوحشية غربان ضارية كجيوش أمضها الجوع، ورحت بمعطف ثقيل وقفازات وقبعة من الفرو أدور حول الجبل المترامي وتحت الأشجار، وكانت الطيور السود تتبعني وتصرخ خلفي كأنها تنذرني بكارثة رهيبة، وازدادت الغيوم التي بدت مطبقة كأنه منذ أجيال كآبة وعتمة، حلَّ مغيب مرعب من الصقيع والمرارة والوحدة، كان خلالها الجبل يمتد والمدينة تغيب والنهر المتجمد يبدو كالسراب، وحين أعتم الفضاء بدأت أشعر بالذعر، لم أعد أحس بوجنتيَّ أو ساقيَّ أو يديَّ لا يوقظني من الإغماء سوى صراخ الغربان، فهتفت مستندا إلى إحدى الأشجار أيها المسيح إنني آتٍ إليك، فسرعان ما تراءت لي من بعيد أنوار واهنة جدا لقرية مغمورة في الثلج، فانحدرت مسرعاً وسقطت على الجليد ثم تابعت المسير فإذا بي أمام عجوز متشحة بالسواد شنيعة الوجه أشبه بقردة منها بإنسان فقلت هلا دللتني يا سيدتي على كنيسة القرية، فقالت تعال معي إنني ذاهبة إلى هناك وهنأتني بالعيد فقبلتها وعانقتها بفرح ودخلنا الكنيسة متأبطين كل منا ذراع الآخر، ولفح وجهي البارد دفء الشموع والقناديل، وعادت الحياة تدريجياً إلى جسدي بعدما شعرت أنه أشبه بفأس متجلدة، أبصرت حولي كنيسة وقورة معتمة مليئة بالعجائز والبخور والأيقونات التي لا تظهر إلا إذا كان بجانبها قنديل أو شموع، وكانت التراتيل تضفي إلى ذلك الدفء العميق إيقاعاً أشبه بالسحر، سمعْتُ صوت الله يغيب في أعماق صدري، فترقرقت عيناي بالدموع، وحين نظرت إلى العجوز وجدتها أيضاً تبكي فتعانقنا من جديد، ودعتني إلى منزلها وكانت قد حضَّرتْ بعض الحلوى وتفاحاً ونصف زجاجة من النبيذ، وكانت وحيدة في المنزل كله، وبعد أن شربنا القدح الأول فقط سألتني من أنا؟ فأجبت فقالت: لقد توقعت ذلك فإن هذه الحرارة لا توجد عند شبابنا الهمج، ثم أخذتْ تسعل بشدة جعلت قلبي ينفطر وأخذتْ تبوح لي بأسرار لم افهم معظمها فلم أكن أعرف الروسية جيداً بعد، ثم نامت فقبلتها من جبينها وغفوت على أريكة.

وفي الصباح أيقظتني وسرنا في دروب القرية المثلوجة وتحدثنا طويلاً دون أن يفهم أحدنا الآخر ولكننا كنا سعيدين حتى يمكن القول إنه كان أبهج عيد ميلاد في حياتي، كان الصِبية يتزلجون على بُركْ متجمدة والفتيات يجارينهم وكانت السماء مطبقة مطبقة كأنما ستظل كذلك إلى الأبد، وسارت بي إلى موقف الحافلة وودعتها

فقبلتني ولوحْتُ لها بيدي من النافذة ثم عدت، لشد ما آلمني أن أتركها وحيدة في صقيع تلك القرية المنسية ولكنكما لن تفهما ذلك، لقد ظننتما أن الخمس سنوات التي مرت كانت لابد أن تغيرني! إن الشقاء الذي حلَّ بي كان معظمه بسبب رؤيتي الفراغ الروحي الذي يتخبط به السوفييت، ومع ذلك لن تفهما شيئاً أيضاً عن مقدار البؤس الروحي الذي يعاني منه الروس ذوو النفوس الخالية من أية صلاة. لقد ذهبت ذات يوم إلى بلدة سوزْدَلْ المركز الروحي لروسيا القيصرية فذهلت للعدد الهائل للكنائس والأديرة، ولكن يالشدة كابتي حين اكتشفت أن بين كل تلك الكنائس لا توجد سوى كنيسة واحدة يجري فيها قداس، لقد جعل السوفييت بيوت الله معارض ومتاحف يرتادها الإنكليز والأميركيون واليابانيون، وعندما انتهى القداس وغادرت الكنيسة الوحيدة التي تعبق بالبخور دهمتني إمرأة أربعينية عند المدخل وقالت لي ما أسعد تلك الأيام التي كانت فيها كل تلك الأجراس تقرع معاً يوم الأحد.. لقد كان حجاً روسياً حقيقياً.. إنني متأكدة أنها ستعود إلى ذلك.. هل تعتقد ذلك؟ أنت أجنبي أليس كذلك؟ إنني أتساءل الآن تُرى هل اقترب اليوم الذي تتحقق فيه أمنيتها؟

فقال زاهر:

- إنه يبتعد.
- إن يسوع قد سمع على كل حال الدعاء المجروح الذي خرج من صدرها.

وقال نضال:

- دعه.. لن يتغير.. ألم يصف لنا كيف كانت والدته تُقرئه الإنجيل وهو صغير كل يوم قبل أن ينام!؟.

ورد فيليب:

- ليس هذا كل شيء، لقد بحثت عن الحقيقة أكثر بكثير مما فعلتما، إنني لأذكر الآن سنوات المراهقة.. حيرة القلب.. الحزن المستديم المقلق.. الوجه الأبدي الدموع.. الحلم السرمدي بالخلاص.. لقد أخذت أتنقل من صديق إلى حبيب إلى قريب فلم أشعر سوى بأن كل شيء باطل ولم تكف دموعي عن الانحدار، لقد أخذت أتنقل من كتاب إلى آخر حتى غرقت في لجة عميقة من الضياع، لقد لُذت بأبي وأمي وأخوتي ولكن نفسي لم تهدأ أو قلبي يعرف السكينة في وقت من الأوقات،

ولكن فجأةً حدث شيء مفاجئ، انعطاف حاد وحاسم في حياتي، فذات يوم أثناء عودتي إلى المنزل مساءً سمعت ترانيم شجية تنبعث من قبو، وتراتيل أناس بسطاء ملأى بالطمأنينة، وعندما هبطت إلى الكنيسة وأطللت من زجاج المدخل سحرتني بساطتها، لا ثريات لا بهرجة لا أضواء فقط أناس خاشعون على وجوههم تلك الغيبة التي تجعلهم يبدون وقد سهوا عن أنفسهم، لم يكن هناك أيقونات على الجدران أو صور للقديسين أو نحاسيات، صليب واحد فقط كان وراء الواعظ على ستارة بلون النبيذ. لا أدري كيف امتلأ قلبي التائه وغَشَتْ نفسي سكينة عميقة جعلتني أرتجف كعصفور وجد ركناً دافئاً بعد أن أغرقه المطر، وعندما لمح القس وجهي الملتهب الملتصق بالزجاج خرج إلي وأبدى يداً مخلصة وصدراً رحباً وفماً مبتسماً وأجلسني في المقعد الأول فكدت أبكي ولقد اغرورقت عيناي فعلاً، وعندما انتهى القداس وفرغت الكنيسة جلس القس بجانبي وقال بصوت خِلته ليس من هذا العالم:

- تبدو صغيراً ومتعباً.
- لقد تهت طويلاً وجرَّحني الناس.
- أنت على مرمى حجر من الخلاص.
- كيف؟
- عليك أن تعود إلى البيت وتتوب وتعود إلينا بريئاً وبذلك تولد من جديد بالمسيح.

كانت تلك التوبة التي هي أحدثت الانقلاب الكبير في حياتي، أحسست أن الحمل الثقيل الممتلئ بالضياع واليأس والتشتت والمرارة والذي كنت أنوء تحته بصورة دائمة أينما ذهبت سقط فجأةً عن ظهري وأصبحت حراً وخفيفاً، عيناي أكثر انفتاحاً وصفاء إنني أدين بكل سعادتي التي تلت بعدها إلى تلك اللحظة، لقد امتنعت عن الكذب والشهوات وعبودية الرغائب...

فقاطعه زاهر بشيء من الهزء:

- حدث كل ذلك فجأةً!
- ليس فجأةً، لأن الشيطان يبدأ بمحاربتك ليعيدك إلى الطبيعة القديمة ولكن شدة رغبتي في الإيمان كانت تذكرني في اللحظة الحرجة وتعصمني، وهكذا يا

نضال لا تظن أن والدتي السبب في إيماني وأنني ضيق الأفق وعلي العودة إلى غابة الضلال والركوع أمام صنم درجنسكي حتى ترضى.

وعلتْ ابتسامة وجه نضال:

- عجباً هل هو صنم أم تمثال؟

وأردف:

- لم تكن حياتك سوى أوهام.

وقال زاهر:

- وليست كل الصلوات التي قمتَ بها سوى دخان تبدّد في الهواء.

وأكمل:

- ومبيتك عند العجوز غبن محض.

فقال فيليب:

- لماذا أليست إنسانة؟

- لا.. إنها مواطنة.

- ولها رقم أليس كذلك؟.. تباً من أعماق قلبي..

وهبَّ زاهر واقفاً قبل أن يبدأ الجدل القديم الذي طالما احتدم، كان عازفاً عن الخوض في حديث طويل بلا شواطئ، وقام وراءه نضال وسارا نحو الباب، ولكن ما لبث نضال أن وجد نفسه وحيداً، فصعد إلى سطح المبنى، وأخذ يسير تحت الرذاذ الليلي جيئة وذهاباً، وتبدت له أنوار المدينة مترامية غريقة في العتمة والمطر، فرجع إليه ذهوله وعاد يهذي: من أنا؟ ولماذا أعيش؟ تباً لكِ يا حياتي لم أعد سوى جاموسة ترعى في حقل.. كم مرة أكلت! كم مرة شربت! متى ألقي هذا الجسد بعيداً عني؟ متى أرميه خارج المدينة بين القمامة؟ أريد أن أعمل خيراً ما أريد أن أعمل شراً ما!... منذ سنوات وهو يشعر كأنما وقع في شبكة محبوكة من خيوط الجسد الفاني، كانت قوى العقل تقوده سريعاً ولكن في عكس ما تملي عليه الروح، وهكذا كان يتوغل عميقاً في أدغال الباطل، وكان القطار مسرعاً به لا يعرف متى يقف؟ أين وكيف؟.. قطار من المخاطر والأحزان، يهدهد جسده المتعب من الماضي ويغريه بالنوم، ويصدمه فجأةً بمشهد مروع أو جميل ساحر فيستيقظ، وكان يردد دائماً متى

تقف أيها القطار؟ متى وكيف؟... صفارة إنذار حادة تتناهى إليه هذه الأيام، ماذا تعني يا إلهي؟ ماذا تعني؟ راح يردد وهو يهبط السلم، فوجد النور قد انقطع والثانية عشرة قد حلَّت فانسلَّ إلى غرفته المعتمة وكان الجميع نائمين، وتراءى له الماضي بأكمله وهو مستلقٍ على السرير، مراهقة وحيرة، شباب وكفاح، عودة السؤال القديم المروع من هو؟ ولماذا يعيش؟...

------- ٣ ------------------------------------

أيقظ ناتاشا الكسندروفنا صوت الريح من النوم، ونظرت من النافذة فأدركت أن الخريف يتقدم وأن رحلات الرياح قد بدأت عبر المدينة، إن كلاً من جبلي بشتاو وإليبروس من الشرق يقابلهما سلسلة غربية مؤلفة من ثلاثة جبال، مما يجعل للبلدة فجوة تتدفق منها الرياح بضراوة كلما أوغل الخريف. لقد ابتدأ حج الرياح إذن رددت ناتاشا في فراشها الدافئ وهي تنظر من النافذة، فلمحت في البعيد، على الضفة الثانية، مَرسماً يقف وراءه مراد بيده علبة ألوان محدقاً في الجسر وربما في البعيد البعيد إلى سلسلة ماشوك نعم لعله يرسم الجبال الثلاثة، فكرت ناتاشا، إنها لطالما رأت ذلك الشاب على تلك الضفة يوجه مرسمه في اتجاهات مختلفة وتساءلت من يكون؟ ولكنه الآن لا يأبه بالريح وباقتراب المطر.

ولم تقوَ هذه المرة على مقاومة الإغراء، فسرعان ما ألقت القارب في النهر واتجهت إلى الضفة الثانية تلفحها الريح فتطوح بشعرها والقارب، إنها من ذلك النوع النادر من النساء الذي لا يتورع عن فعل أي شيء يشير به هواه، ومع ذلك غالباً ما تجدها ممزقة الروح مُجرحةً تبحث عن أي شاب تلوذ بين ذراعيه مستجدية الود والنسيان. لقد عبرت النهر تحت سحب مروعة وفوق موج عنيف ووصلت إليه متهالكة وقالت وكفَّاها لا يزالان يقبضان على المجذافين:

- عم صباحاً، يا ذا الشعر الأسود، هل أنت أجنبي؟

فقال وهو لا يزال يرسم:

- نعم.. من سورية.
- إن عينيك مغرورقتان بالدموع.
- إنني أجهد في تحويل هذه الجبال إلى صراخ، وهذه عاشر محاولة.

فسألَتْ والقارب يترنح تحتها.

- ولهذا تبكي؟
- إنني لا أبكي.. إن عينيَّ تذرفان الدموع من طول التحديق.

ورنَتْ إلى اللوحة ثم طافت نظراتها على الجسر والجبال، وعلِقت في السماء المكدرة العميقة وقالت:

- الغيوم تنذر بكارثة من المطر.. من يرسم في ظل هذا الطقس؟

فأجاب وعيناه لا تفارقان المرسم:

- المجنون!

ثم ألقى عليها نظرة خاطفة لم تلبث أن ثبتت على شعرها تنثره الرياح:

- تبدين كغجرية.. عيناها بلون الموج، ولكن شعرها أشقر كالذهب.

وعصفت الريح بأوراق الخريف فسقطت على المرسم والمياه والقارب وارتجفت أشجار الضفة، وقالت:

- أتحتمل هذا البرد وهذه الوحدة؟

فأجاب وقد عاد إلى لوحته:

- مظلمٌ هو الليل ومظلمة هي طرقات زاردشت[١].

ولم تفهم شيئاً، وقالت:

- لطالما رأيتك منفرداً على هذه الضفة، انظر إن نافذتي هناك في ذلك المنزل الأخير، وأشارت بيدها إلى الضفة الثانية، ولكنه لم ينظر إلى أي مكان.

- نعم إنني وحيد ومهجور لدرجة أنني لم أعتقد أن هناك أحداً غيري على الأرض.

- أنتم العرب كالأطفال.. أليس لك رفاق؟

- لقد طلب المبدع يوماً رفاقاً له وفتش عن أبناء آماله فأدرك أنه لن يجدهم إذا هو لم يخلقهم خلقاً[١].. إن أصدقائي أولئك الجبال وتلك الرياح وذلك الأفق البعيد المنقوع بالغيوم.

ونظرتْ إلى كوخ حقير مختفٍ بين الأشجار وقالت بريبة:

- لا أظنك تسكن هناك!

- نعم إنني أعيش هنا في الصيف، والآن حان وقت الرحيل، لقد هربت من مبنى الطلبة منذ خمس سنوات، إذ من المحال ألا تفنى روح الإنسان في جحر

---

١ - نيتشه .

الثعابين ذاك أما هنا فتزداد غنىً إذ أُصادق الشمس عند شروقها فوق النهر وأنظر إلى غسقها فوق الجسور البعيدة، أُنصتُ إلى أحاديث الأشجار وأغاني الرياح، أقتعد الأعشاب وأُلوح للسفن، يظهر لي شبح نيتشه، يتراءى لي من بين الأشجار هاتفاً: لا تقترب من هؤلاء الناس. لا تبارح مقامك في الغاب فالأجدر بك أن تعود إلى مراتع الحيوان، أفلا يرضيك أن تكون مثلي دُباً من الدببة أو طيراً من الأطيار؟ وعندما يأتي الجليد أرحل إلى شقة ويحين موعد الدروس.

- أإلى هذا الحد كريه في نظرك المجتمع الإنساني؟
- ما اسمك؟
- ناتاشا.
- ما الإنسان ياناتاشا إلا غدير دنس وليس إلا لمن أصبح محيطاً أن يقبل انصباب مثل هذا الغدير في عبابه دون أن يتدنس [1].

وهدر الرعد من بعيد وازداد تلاطم المياه الرمادية، وما انفك يحدق في اللوحة والجبال، فقالت وقد أثارها أنه لم يلق عليها سوى نظرة بصوت يرن فيه جرس جنسي:

- هل رسمت في يوم من الأيام إمرأة عارية؟

وفهم أنها تستدرجه إلى السرير، أو على الأقل بإمكانه فعل هذا الآن، وعصف بوجهه اضطراب عنيف، تذكر فجأةً كل ماضيه الجنسي في روسيا بعد حرمان طويل في سورية، وكيف تنقل من فتاة إلى أخرى حتى بلغن العشرات متذكراً قول نيتشه: من العبث أن يُطالب بالعفة من تمرغ آباؤه بالنساء وكرعوا الخمر والتهموا لحم الخنزير. ثم توقف فجأةً عندما قرر وإلى الأبد أن الرسم هو هدفه في الحياة فأخذ يتبع قول نيتشه: ما علي أن أدفع شهواتي إلى سكون الشبع بل علي أن أغرقها في الجمال، ولكنه الآن حائر يرتعد يكاد يلقي بنفسه بين ذراعيها، حسناً إن المحارب الصادق يفضل ما يجب عليه على ما يريده [2] ولكن يا للساقين المكتنزين والشفتين اللتين ستغمرانه بالقبل، إنه يدفن رأسه في المرسم يحدس أنها أدركت أن الاضطراب

---

[1] – نيتشه .

[2] – نيتشه .

قد ساده من أخمص قدميه إلى رأسه: من أين أتيتِ أيتها الغجرية؟ فقريباً ستمطر على الجبال، وإن نفسي لتتلهف لمشهد المطر على القمم والجسور والأوراق الصفراء.

- من فضلك هل ترسمني عارية؟

كانت ناتاشا قد أحسَّت بقلبه الحار وبأنه الشاب المناسب الذي سيغمرها بالعطف، ولم ينبس ببنت شفة فقالت ثانيةً:

- أسرع إلى القارب ولنعد شاياً لذيذاً في غرفة دافئة، أسرع قبل أن تُطبق السماء على الأرض ويلتهمنا النهر البارد.

الجبال، الجبال أيضاً تصرخ، عانقني، وخذني معك إلى الأبدية، إنه الخريف الأخير، وغداً تغادر روسيا إلى الأبد. يا لذراعيكِ الممسكين بالمجذافين أيتها الشقراء ويا لصدرك المنادي إلقِ بنفسك في أحضاني.

وطوى مرسمه وأدواته فسارعت وأخذتها بينما أمسك بالمجذافين، وهدر الرعد مرة ثانية، وأخذ القارب يعلو ويهبط وقالت:

- إنني سعيدة بك.. ما اسمك؟
- مراد.
- إذن أإلى هذا الحد أنت بعيد عن الآخرين؟
- قال نيتشه لا شيء يُصيب بالغثيان أكثر من الآخرين.
- ما بك تكرر نيتشه، نيتشه؟
- لقد كان لي خبزاً وخمراً.. لقد كان لي قوةً ومحبة.. إنه كل شيء في حياتي.
- ولكنه نازي!
- على العكس لقد أدان نيتشه الرايخ الألماني وقال إنه تعبير عن الضعف، والانحناء أمامه في رأيه عبودية، لقد قال إن الرجل القوي هو الرجل اللطيف الذي ليس لديه أية رغبة في أن يسيطر، وقد كان هو نفسه طيباً ورؤوفاً شجب النظام الديكتاتوري واعتبر الدولة صنماً جديداً، لقد ردد على لسان زارادشت أن الأفكار التي تأتي على أقدام الحمام هي التي تهدي العالم.
- إن حياتكَ غريبة، هل أنتَ سعيد؟
- أجل.

– كيف يكون المرء سعيداً؟

– لكي يكون المرء سعيداً يجب أن يصنع قدره بإرادته ولا توجد نصيحة أخرى، وهكذا لا يكون سروره نهباً لاتجاه الرياح تذروه وتعبث به كما تفعل بأوراق الخريف، منتظراً الصدف وهبات الآخرين، خاملاً مشفِقاً على نفسه ليل نهار، وهل يصدُ الخَور هبوب الرياح؟

– وأنت هل كنت سعيداً دائماً؟

– أجل ولكن أحياناً تعصف بي كآبة لا أدري لها مبرراً، ولو كنتُ أعلم سبباً لهذه الكآبة لزحزحتها ولو كانت جبالاً وانتهيت، ولكن عندما لا أعلم لها سبباً ماذا أفعل؟ إنني أنا نفسي لم أصبح نيتشوياً حقيقياً بعد.

وعبرت سفينة بيضاء سريعة تحت الجسر ثم مرت بجانبهما ودفعت الأمواج الرمادية إلى القارب حتى كاد ينقلب وغابت عن الأنظار، وظلَّت ناتاشا صامتة وفي فمها ألف سؤال حتى وصلا إلى الشاطئ فقال:

– من الغريب أنك تبعثني إلى هناك، إن الناس يحاذرون المنعزلين عن العالم، ولا يصدقون أننا نأتيهم بالهِبات، إن لخطوات الناسك في الشارع وقعاً مستغرباً في آذان الناس. إنهم ليجفلون على مراقدهم إذ يسمعونها فيتساءلون: إلى أين يزحف هذا اللص[1]؟.

– إن لي جنوني أيضاً!

– وربطَتْ القارب بجذع إحدى الأشجار ودخلا الحجرة كأنهما هاربان، وأخذ ينصُبُ مرسمه فقالت:

– لندفأ قليلاً.. ليزول التجمد عن يديك.. وليذهب الإحمرار عن أنفي.. لقد لوحنا البرد، هل أنفي أحمر؟

ونظرت إلى وجهها في المرآة. وبدلاً من أن تُعِدَّ السماور أخرجت زجاجة نبيذ وكأسين ولم تنفك تهتف وهي تنظر إلى وجهه المتعب من الأحلام والضياع «كم أنا مسرورة بك». وقرعا القدحين على الطريقة الروسية ولكن دون أن يتكلما أو يهمسا بشيء، كانت وجنتاها تعودان إلى رونقيهما بعد تيبس، وكانت عيناها تغدوان

---

[1] – نيتشه .

مغريتين غريبتين ينفذ بريقهما إلى شيء غامض فيه لا هو الجسد ولا هي الروح، نعم إنني سأرسم هاتين العينين المحيرتين ردد في نفسه وكانت الزجاجة تتناقص دون أن يرغب أي منهما في النهوض أو الكلام، لقد أجهدهما النهر فاستسلما للخدر والدفء والزجاجة، ووضع كفه على كتفها العاري ثم انسابت إلى رقبتها الشهية البيضاء فهمست بصوت رقيق « لقد أتيت لترسمني فقط أليس كذلك؟ » ولكن يده وصلت إلى ثديها وسرعان ما غرقا في السرير، وهدر الرعد مرةً ثالثة، وازدادت سرعة الرياح والمياه فاستدار إلى النافذة ونظر إلى النهر الرمادي وعاد وضمها إليه وقالت فجأةً ذاهلة:

- من أنت؟
- فحدق في عينيها متسائلاً!
- أقصد أنكَ لم تكن بين الناس، لقد جئتُ بك من غابة!
- إن أوفر الناس اهتماماً في هذا الزمان يتساءلون عما يحفظ حياة الإنسان، أما أنا فهمي أن أعرف كيف أتفوق على إنسانيتي عن طريق الرسم، إن الإنسان الأعلى هو قبلة أنظاري وعواطفي، وما أهتم للإنسان ولا للقريب ولا للفقير ولا للمحزون ولا لخيار الناس[1] يجب أن أصبح في يوم من الأيام مثل رفائيل أو رامبراندت أو دافنشي ذلك هو مغزى حياتي.

ونظر إليها وكانت الحيرة لا تزال تلف وجهها فقال:

- حسناً هل أقص عليك منذ البداية؟
- لقد جئتُ بك من أجل هذا.
- سأحكي لكِ منذ كنت مراهقاً غريباً يبحث عن شيء يهبهُ حياته، عن إله يخدمه إلى آخر نبضة من نبضات قلبه، يحس بدوي غريب في داخله، بطاقة لا تنضب، كأنه مطلوب منه المطلق ذاته، فتارةً يفكر بالحب وأخرى بالفن، كان صدره طافحاً باللهب وكان بحاجة إلى شرارة لكي يشتعل الحريق. وكانت تلك الشرارة هي شجرة لوز في حديقة منزله تُدهشه حين يأتي نيسان فتزهر وتمتلئ أغصانها وروداً بيضاء وتغدو كالعروس، وذات ربيع جلس بجوار النافذة وأخذ يرسمها، ثم شغفه

---

[1] - نيتشه .

الرسم فجعل يرسم الغسق والبيوت والأزقة ولكنه لم ينجح أبداً في رسم شيء مثلما يفعل عندما تتحول شجرة اللوز تلك إلى معجزة، فكان يتساءل حائراً: هل أنا موهوب؟ هل أُعطي حياتي كلها للرسم؟.. حياتي التي لا أملك غيرها يا إلهي! وفجأةً وقع في هاوية غريبة لا قرار لها.

فذات يوم ذهبتُ يا ناتاشا مع والدي لنسترد ديناً من جار لنا، وهو امرؤٌ غارق في العدمية منذ زمن طويل، يصفه الناس بأنه ليس عاقلاً تماماً، في فمه سيجارة مطفأة دائماً، وعلى رأسه قبعة تُخفي رحيل الشعر عن رأسه. كان بيته داراً عربية من تلك الأنواع القديمة التي تحن إليها النفس، وكانت غرفته مؤلفة من أسِرَّة وأرائك صُنعت قبل ميلاده بوقت طويل، لقد ظل فقيراً رغم سنه الأربعيني وظل صغيراً في أعين الناس، كان كل أثاث غرفته مغرقاً في القِدم، رثاً، ولكنه يبعث راحة في النفس لسبب مجهول. ودخلَتْ والدته كشبح فجأةً ونظرت إلينا بريبة وسألتنا عن الذي أتى بنا إلى هنا وعن إسمينا وأين نقطن ثم خرجت غير مقتنعة وعلى وجهها الناحل سيماء الجنون.. وحدهما في البيت وقطة ضخمة تتجول من مكان إلى آخر مستغربة غير راضية أو هذا ما بدا لي على الأقل. جلس فترة طويلة يفرك يديه قرب المدفأة دون أن يقول شيئاً وفجأةً نطق:

– اليوم اكتشفتُ هوة العزلة التي يعيشها الإنسان، وكم هو وحيد، لقد تحدثتُ مع أمي بضع لحظات عن الوهن الذي أصاب أعصابي فانتقل إليها السقم على الفور، وتردَّت في قلق مضنٍ بان في ارتجاف صوتها فحاولْتُ إعادة الطمأنينة إليها مرتعداً وأصبحنا نحن الإثنان نعوم في بركة من التمزق. إذا حلَّ بل شيء لا تبح به لأحد لأنك وحيد وحيد أيها الإنسان، إن أصدقاءك غير مبالين، وشفقة أقربائك باردة غير مجدية، تقدم وحيداً من الجنون، تقدم بشجاعة من الانتحار.

واحتار والدي، ولست أتذكر أي حوار دار بين الاثنين ولكنني وجدت جارنا وقد أخذ يوجه خطابه إلي:

– لقد عصفَتْ كارثة مروعة في أوروبا في القرن الماضي عندما قال داروين إن أجدادنا هم قرود وسعادين وبعد موتنا لا توجد أبدية، لقد كان الإنسان في الماضي. أقصد في الألفي سنة التي مرت. عندما يهدُّه الشقاء والعذاب وعندما يدهشه وجوده

في الكون يفكر أنه من نسل آدم وحواء، ثم يصلي عسى أن يعوضه الله عن حرمانه بالجنة وعلى هذا بُني توازن المرء، أما الآن وبعد أن أدرك أنه ليس هناك جنة أو نار وليس أسلافه قابيل وهابيل أصبح مثل بحّار غادر أرضه إلى مناطق نائية، وفجأةً في عرض المحيط اكتشف خطأ الخرائط التي كانت بحوزته، كما أن أرضه الأصلية قد غرقت في المياه، وهكذا تاه في المحيط، ولم يعد يعرف إلى أين يتجه أو ماذا يفعل بحياته، هذا ما حلَّ بأوروبا في القرن التاسع عشر، لقد أصبح الإنسان وحيداً بلا هدف، والحياة بلا معنى، كما أنا وحيد رغم أن أمي بجانبي.

وعلَتْ وجهي كآبة فظيعة، فصرخ والدي:

- لماذا تقول له مثل هذا الكلام؟

وصمتَ قليلاً ثم أجاب وهو لا يزال يقلب كفيه حول المدفأة:

- لكي يضيع!
- حقاً؟

فصمتَ مرة أخرى مثقل الرأس ثم قال:

- عندها سيبدأ بالبحث عن الخلاص.
- وسيجده؟
- على الأقل يفوز بالمعرفة، عندما يتوه المرء في بستان، في الليل، ما أول ما سيفعله؟ سيجوب البستان كله حتى يجد الطريق، وهكذا يكون قد اكتشفه.
- ولكنها غابة، غابة من العدم ترميه فيها وليس بستاناً صغيراً.
- وهو لا يزال صغيراً، يحتفظ بطاقة كبيرة، ماذا سيفعل بها إذا لم يفتش عن الحقيقة؟

وخرجنا ناسياً والدي دَينه، ولكنني لم أنس أي شيء: إذن نحن منسيون إلى هذا الحد في العالم الشاسع بلا معين؟ أرقت طيلة تلك الليلة وحينما نمت وجدت نفسي في عرض البحر، كنا ثمانية في مركب صغير وكنت الوحيد الذي لا يمسك مجذافاً. وأشار أحدهم إلى مكاني لكي آتي وصرخت به ولكن إلى أين؟ ولم يجب أحد، كانوا صامتين مُجهدين صابرين، وكنت أذهب إلى مقدمة المركب أحدق في المدى طويلاً حائراً ثم أعود فأرنوا إليهم، فيقولون لي هلاَّ حملت مجذافاً. فأصيح من أعماق

صدري ولكن إلى أين؟ إلى أين؟ وكنت أقرأ على وجوههم « لسنا ندري ولا أحد يدري ». واستيقظت أشد حيرة وتذكرت جرحاً آخر أكثر عمقاً، وذلك عندما سألت والدي صباح عيد الميلاد وكنت في الرابعة من العمر، سألته بحيرة من أين يدخل بابا نويل إلى البيت ويضع الهدية على سريري وكنت أحدس أن أبي من يفعل ذلك، ولكنني كنت آمل بشدة أن تكون هناك مثلاً قوى خيرة تدخل وتخرج برعاية الروح القدس مثلاً دون أن ينتبه لها أحد، ولكنه اعترف لي بأسف كئيب. فشعرت باليأس: إذن نحن وحيدون ولا توجد أية ملائكة رحيمة تشفق علينا وترسل لنا الهدايا!

وقالت ناتاشا:

- من هو الأب نويل؟
- آه.. أنتم تسمونه رجل الثلج أو رجل الصقيع أليس كذلك؟
- أجل ولكنه لا يدخل خلسةً، إنه يطرق الباب أو النوافذ.
- عندنا يستيقظ الطفل صباح العيد فيجد هديته على الوسادة.

وبدأت تمطر بغزارة، على النهر والأشجار والزوارق، لقد بدا المشهد وراء النافذة عاصفة حقيقية وقالت:

- ألهذا الحد كان جرح الطفولة عميقاً؟
- لقد ظللت أسبوعين دامي القلب، لا أقول لأبي أو لأمي ما يعتريني، كنت أستلقي على أريكة في الظلام وحدي، وأفكر وأفكر طيلة ساعات وعندما تبدأ أمي بالبحث عني وتناديني تكتشف أن دموعي قد غطت وجهي ووصلت إلى الوسادة، إن من أشق الأمور على الطفل أن يظن أن المطلق ليس سوى وهم، لقد ظللت مجروح القلب طيلة العيدَين ولم أنس حتى انتزعت والدتي شجرة الميلاد التي كانت تذكرني كلما نظرت إليها بالأب نويل الذي أصبح جزءاً من أرضنا القاسية.

وها هو الجرح مرة أخرى ينزف من جديد، ويزداد اتساعاً، ووجهي يغدو شاحباً غريباً: غور رهيب من العدم والسوداوية والتشاؤم ترديتُ فيه في الأشهر التي تلت، متسائلاً ما سر هذه الحياة؟ كم هي ساحرة إلى درجة أن المرء يردد يا إلهي أبقني هنا ألف عام، وكم هي مضنية إلى حد أنه يقول يا ربي أزهق روحي الآن، لقد تهتُ بكل ما تحمل كلمات المرارة والرعب والفوضى من معنى، وصرت أتردد على جارنا

وحدي، لأنني أصبحت أشعر أن ضياعاً هناك مشتركاً يجمعنا، فتهدأ نفسي عندما أدخل تلك الغرفة الخالية من أي تبرج، وذات يوم أخبرني أن الناس مثل الكواكب السيارة مهما اقتربوا من بعض يظل كل منهم منكفئاً إلى مداره، وكان يتلذذ بكآبتي وكنت أعلم ذلك، وظل يستهويني لأنه الوحيد ممن أعرفهم كان يقول الحقيقة، ومرةً جلبت له لوحة « شجرة اللوز » فتأملها مفكراً ملياً وقال:

- حسناً.. أنا الذي ألقيتك في العدم وأنا سأخرجك منه.. خذ!
- وتناول من المكتبة كتاب نيتشه « هكذا تكلم زارادشت » قائلاً:
- لا تعد إلي مرة ثانية.

ولم أعد، لأن حبي تحول إلى فريدريك نيتشه وهو يتجول وحيداً بين الجروف، مريضاً مهدماً، فتنفجر أمامه البروق ويرتعد لرؤية المدى، لا يطمع بشيء ولا يرغب بشيء ولا يحتاج إلى شيء ولا يخاف من شيء، بدا لي كلما ازداد اضطهاد الناس له ازداد رقةً وعبقرية، وكأنه يريد أن يقول: « أنا وحدي ضد الجميع ».

لقد أدركتُ أن الإنسان قد تحتم عليه أن يتجاوز أبداً ذاته، لقد وجب عليه أن يكون الجهاد والمستقبل والهدف، حيث تنشأ فضيلته عندما تنصب إرادته على مقصد واحد، فيسير بلا رفيق سوى حبه وإبداعه وليس غير الإبداع ما ينقذ من الأوجاع ويخفف أثقال الحياة، ولقد أُعطي للإنسان أن يعلو على نفسه بطرق عديدة وبوسائل عديدة، فهو ليس هدفاً وغاية، إن هو إلا حبل منصوب بين الحيوان والإنسان الأعلى الذي انتصر على طبيعته الحيوانية ونظم فوضى عواطفه وتسامى ببواعثه وأعطى أسلوباً لشخصيته كما قيل عن جوته بأنه درب نفسه على الكمال وخلق ذاته... وهكذا سلكت درب الفن لأتفوق على نفسي فأخذت أرسم بإلحاح، كانت تأتيني أيام أشعر فيها بالفرح يهزني هزاً، تتغلغل الغبطة في مسام جسمي حتى أكاد أرتجف من السعادة، ولكن لا ألبث أن أسقط من جديد في هاوية من حزن غريب مهلك موحش حتى تكاد أعضائي تنفصل عن جسمي، كنت لا أزال أتخبط. لقد ظللت غير راضٍ عن لوحاتي وقلقاً جداً لهذا الفشل، ولكنني ظللت مديناً جداً للكتاب ولشجرة اللوز لدرجة أنني كنت أهذي في الشوارع كلما سرت وحيداً بين الناس « عجباً أيها العرب

ألم يأتكم بعد خبر مولد نيتشه ». وعند هجري البيت إلى روسيا، ألقيت نظرة أخيرة على شجرة اللوز، وحقيبتي في يدي، ورددت قبل أن أغادر قصيدة قديمة يابانية:

إذا لم أعد إليكِ ثانيةً

يا شجرة اللوز التي تجاور داري

فلا تنسي أنتِ موعد الربيع

وأزهري ما وسعك الإزهار

استقبلني الخريف، فسرت على ضفة النهر في اليوم الأول منتشياً وحيداً، أجمع حصىً وأصدافاً غريبة ملونة تارة، وتُبهرني زرقة المياه تارةً أخرى، أشهد سطوع الشمس على الأشجار الصفراء وقبب الكنائس والجبال البعيدة، ويسرق اهتمامي عاشقان متعانقان بحذاء المياه، وتبتعد المدينة تبتعد أُصبح وحدي أنا والشاطئ والخريف، أمضي ورصيف النهر لا نهاية له، طيور الضفة تكلمني فلا أفهم شيئاً، الريح تهمس في أُذني أناشيد السهب فأبتسم طرباً، كانت عذوبة الشمس وزرقة الموج يجلساني تارةً على صخور الشاطئ ويغرياني بتتبع الضفة إلى سهوب نائية تارة أخرى، كانت السعادة تغمرني كما تحيط بي الزهور والأمواج والسماء، وتبدى لي فجأةً العالم واسعاً رحباً كأن دنيا جديدة تفتحت لي، كدتُ لذهولي أن أفرد ذراعيَّ وأعانق الرياح والتلال والمدى.. ثم خلفتُ النهر ورائي، وسرت متجهاً إلى غابة، شعرت بين الأشجار بسعادة وحرية أكثر، سعادة كئيب إلى حد الدموع ولكنه الآن منعتق ووحيد، وصفر لي بلبل من بعيد، وتتالت أصوات الطيور كجوقة تعزف لي، ثم هبَّ نسيم غريب على الأعشاب، ريح طرية شعرت بعذوبتها العميقة كأنني طفل من الأطفال، وقلت يا أيتها الأبدية المترامية أمامي، يا أيتها الأشجار المتباعدة والأعشاب المتماوجة، يا أيتها الأطيار والسماء والريح هل ولدتُ من جديد؟ ثم وصلت إلى سفوح سلسلة ماشوك وبدأت أصعد، لقد سحرني الهدوء العميق للكون، حتى خلتُ نفسي وحيداً على الأرض، كان الطريق صاعداً مضنياً مليئاً بالظلال والحصى والفراشات، ثم انعطف مراراً وبدأَتْ تبدو لي قمم الجبال الأخرى من بعيد، وكنت كلما ارتقيت تتراءى لي ذرى مخفية وردية لم تكن تظهر وأنا في الأسفل، ثم غدا الجبل أجرد، وشحَّت الأشجار وتصبب من جبيني العرق وأرخيت بصري إلى

الأسفل فلمحت بركة ماء ساحرة تترقرق مع الريح عذبة وحيدة، وكدت أهبط باتجاه الـوادي ولكننــي كنـت قد أُضـنيت، فتابعـت الصـعود علـى الصـخور الجـرداء حتـى تكشـفت لـي روسـيا بأكملهـا، تـراءت لـي روابـي وفيـافي وسـهوب منسـية خضـراء أو ملفوحة بالبخار والضباب والأرواح، ومن الشرق تبدت هضبة خضراء هائلة وراءها جبال مغمورة في الثلج، وأبعد لم يبدُ سوى سديم من أكمة وأراضٍ مترامية لم تطأها قدم إنسان. تجولتُ على القمة وحيداً، وتراءت لي دوحة منفردة، فجلست على جذعها أُرسل إلى الوادي نظرات ملؤها الحب، جلست طويلاً وحيداً صامتاً، وفجأةً خُيل إلي نيتشه يأتي من ورائي ويطوق الشجرة بذراعيه قائلاً:

– « لو أنني أردت هز هذه الدوحة بيديَ لما تمكنت، غير أن الريح الخفية عن أعيننا تهزها وتلويها كما تشاء. هكذا نحن تلوينا وتهزنا أيادٍ لا تُرى.....

.... استحلفكَ بحبي لكَ وأملي فيك ألا تدفع عنك البطل الكامن في نفسك إذ عليك أن تحقق أسمى أمانيك...

.... إذهب إلى عزلتكَ يا أخي فإنني أشيعك بدموعي، لأنني أحب من يتفانى ليوجد من فنائه من يتفوق عليه ».

فانحدرت والدموع تنهمر من مآقي، مقرراً ألا أبقي شيئاً من عناصر الطبيعة لا أرسمه، كانت الريح تزداد برودةً، والمساء قد أطبق، وحولي من كل جانب ومن بعيد كان الفضـاء خالياً إلا من العتمـة وصـدى الريـاح، ورحتُ أطـارد نجمـة القطـب وهـي تزدهــي بمائــة لــون، كنــت لا أزال ســعيداً حــراً أصــيح أنــا ملــك الســهوب والبــراري والليل.... خببتُ طويلاً، مصغياً إلى أحاديث الريح، وامتلأ الظلام بالأرواح، كانت تعول صاخبة وتضطرب في كل صوب، وكما يدنو شراع هزيل في عتمة البحر من الشاطئ، هكذا كنت اقترب رويداً رويداً من مبنى الطلبة.

وجـدت حجرتـي تغـص بـالزوار، مزكومـة بـروائح التبـغ، غاطسـة فـي العبـارات المتكـررة والثرثـرة المميتـة المزهقـة، إننـي إذ جلسـت عـدة دقـائق علـى إحـدى الأرائـك شعرت بالغثيان ونظرت إلى الوجوه بحزن... ثرثرة وثرثرة وثرثرة.. لا كلمات دافئة لا نظرات من القلب.إن غوركي يقول إن الإنسان يتكلم لكي لا يقول شيئاً، فهو لن يبوح

بما تبكي منه الروح. فَسِرتُ حزيناً في الممرات ومن غرفة إلى أخرى متذكراً قول نيتشه: توغل في عزلتك يا أخي، سِرْ فلا رفيق لك سوى حبكَ وإبداعك.

وهكذا تكدس لدي من اللوحات في السنوات الخمس التي تلت ما يملأ حجرة كاملة... أتدرين ما هي أجمل تلك الرسومات؟ إنها ثلاث لدرب بين الأشجار. فقد جئتُ أولاً في الربيع ورسمت الأشجار خضراء على جانبيه ملقيةً ظلالاً ساحرة على الأعشاب الندية وعلى الدرب نفسه الذي تسفح معظمه الشمس، ثم عدت مرةً ثانية في الخريف في يوم مشمس، وكانت الأشجار على جانبيه صفراء والعشب الذي لا يزال أخضر مغطى بالأوراق الخريفية والظلال، والطريق مسفوح بنور واهن كأنما هي أنوار مصابيح، ثم أتيت مرة ثالثة في الشتاء ورسمت درباً كئيباً معتماً مبللاً بالمطر، أشجار حزينة عارية على جانبيه لم تعد تحجب السماء الرمادية.

إنني أعتبر تلك اللوحات الثلاث أفضل ما رسمت في حياتي. أما أكثر لوحة جلبتْ لي الفرح فهي تلك المرة التي تعلمت فيها أن أرسم الريح، فقد قصدت تمثال بوشكين وأشجار الضفة تنوء تحت رياح مروعة تجعل أغصانها تميل كلها باتجاه واحد نحو المياه، وأظهرتُ النهر رمادياً وراء التمثال وقد وُضِعَتْ زهور عند قدميه بعثرتها الرياح، لم أكن أعرف كيف تُرسم الريح عندما كنت لا أزال في سورية، كان ذلك اليوم عيداً بالنسبة لي.

أتعلمين ماذا فعلت ذات يوم؟ لقد وجدت روسياً يرسم كنيسة من بعيد، وكان قد أنجزها تقريباً، فتوقفت وراء مرسمه ورسمت ظهره وهو منحنٍ على لوحته وبيده الريشة ولوحته والكنيسة الحقيقية وبينهما عشب أخضر، وهكذا ظهرت الكنيسة مرتين مرة حقيقية وأخرى على مرسمه، وقد دُهش عندما رآني أفعل كل هذا قبل أن يُنهي لوحته. إن لدي الآن لوحات كثيرة.. كثيرة جداً، حقل من الورود الصفراء ووراءه قلعة، ساقية زرقاء وسط سهب أخضر، طير أبيض وحيد في سماء زرقاء، تماثيل المدينة في الثلج... وقد رسمت النهر ثلاثين مرة، أزرق ورمادياً ومتجمداً، تحت غسق بارد آسر، وتحت ألسنة متراقصة من الشمس القائظة تعوم فيه النساء والرجال، وفي الليالي البيض، وعند هطول المطر، وفي الضباب، وفي الرياح. ولكن المرة الوحيدة التي لم أتمكن فيها من تصويره كانت في إحدى مهرجانات ذكرى النصر على

الفاشية: لقد ارتمى على صفحته الزرقاء الجارية مئات البالونات الحمراء والصفراء والخضراء وأخذت تسبح على صهوة المويجات إلى مكان لا يدري به أحد، تراءى لي مشهد النهر المُتعب من الخطابات في الأصيل الإلهي يقل ذلك الموكب الزاهي من البالونات هو الحقيقة الوحيدة الجميلة في حُمَّى الهتافات الإلزامية والتأكيد المسعور على حكومة ضائعة، لقد فاتني المشهد للأسف إذ لم أكن أملك أية أدوات... باختصار لقد تبدلْتُ جداً منذ كنت أرسم شجرة اللوز، لقد فجرتْ تلك الجبال والأمواج والوديان ينابيع الجمال في نفسي، فغدتْ يدي ماهرة رشيقة. لقد حدث معي مثلما جرى لعلي ابن الجهم عندما أتى من الصحراء ليمدح هارون الرشيد فقال:

أنت كالكلبِ في وفائهِ وكالتيسِ في مقارعة الخطوب

فأمر الخليفة بقطعِ عنقه، ولكن وزيره توسل إليه بأنه أتى للتو من البادية ورجاه أن يدعه يتمشى في رياض بغداد وبين خمائلها وعلى ضفاف الفرات ودجلة، فأمهله أمير المؤمنين ستة شهور تجول خلالها بين الحدائق وعلى ضفاف البحيرات ورنا إلى المطر والسحب والسيول، وكانت بغداد حينها معجزة، ثم عاد ومدح الأمير بما عجز عنه أعظم شعرائه فبُهر به الخليفة وملأ جيبه بالدنانير. ولكن تلك النقود كانت لا شيء أمام تلك السعادة التي شعر بها وهو ينظم أبياته، أنا أيضاً يا ناتاشا لقد شعرت بغبطة لم يختبرها أحد مثلي ممن عرفتهم على الأرض، لقد أحسست أنني أُمسك قدري بيدي فأصبحت لا أبتغي جنات أو أبدية بل أن أعود إلى هذه الأرض بالذات، أما رأيتِ كم كنت سعيداً والجبال تلوح أمامي وراء الرياح كأطياف سحرية من اللهب لقد كاد قلبي ينفطر عندما انتزعتِني من تلك الرؤيا، الحياة ينبوع مسرة يا ناتاشا[١]، إنني الآن لا أترك لحظة واحدة تفلت مني وتتحول إلى اكتئاب رغم أنني وحيد ومهجور أنا والمرسم والطبيعة فالعزلة دائماً تهتف في أذني: لم تُخفَ عني منك خافية ألم تكن تشعر أنك وحيد بين الناس فيسودك من الوحشة ما لم تعرفه وأنت في

---

١ – نيتشه.

أحضاني[1]. ولهذا السبب أتيتِ بي من غابة وليس من الأمكنة التي يرتادها الناس هل فهمتِ الآن؟

فقالت:

– كل هذا صعب حتى يكاد يكون حلماً، لا.. لا زلت لا أفهم كيف يمكن أن تقضي الصيف بأكمله في هذه الوحدة!

– لأن التيار الغريزي لدوامة السلوك القسري للناس لا يُمهلهم لتقليب خواطر من يعيشون خارج نسيج العادة، إن النفس لتمتلئ بالجبن إن أحسَّ المرء للحظة أنه بدأ يبتعد عن روتين الناس العاديين، وتغشى روحه الرهبة فيعود ليرص نفسه بين الصفوف. ولكنه لا يلبث أن يشعر بالتفاهة يوماً ما فيقوم للسير بما يُمليه عليه قلبه ثم يُقفل عائداً محاذراً أن تسوقه الأمواج إلى الضفة الأخرى المرعبة، المليئة بالحياة والأفكار.

– أنا أحياناً أقول مثل هذا الكلام، أطلق نفسك على سجيتها ولا تبال.. المجتمع شبح.. لا يوجد شيء اسمه مجتمع.. ولكنني لم أصل إلى ذلك الإنشقاق الذي أنت عليه.

كانت العاصفة تجتاح المدى وتغير على الجبال والنهر والجسور، وأردفت ناتاشا مقهقهة:

– لا أعتقد أنك ستجد البيت بعد هذا الإعصار!.. ألست جائعاً؟
– أجل.
– عندي لحم خنزير مقدد، وخبز أسود، وزجاجة أخرى.
– إذا شربتُ ثانيةً لن أتمكن من رسمك.
– هل ستجعلني أصرخ كالجبال؟
– سأجعل عينيك وجسدك يقولون الشيء ذاته!
– هل يتكلم الجسد أيضاً!؟

– تأملي، ذات يوم رأيتُ في متحف، لوحة « النواخذة » لريين، رأيت كيف يجر الفقراء الروس في القرون الغابرة المراكب على ضفتي نهر الفولغا بواسطة حبال

[1] – نيتشه.

تربط أجسادهم بها ويُقادون كالثيران على الضفتين ساحبين المركب على صفحة الموج، عندها، لأول مرة، أدركت أنني لست مجرد آلة تصوير وأن لوحاتي يجب أن تُعبر عن معاناة ما عن رمز ما عن فكرة. لقد أعجبتني مثلاً لوحة سيروف عن « لينين » وهو يخطب أمام مؤتمر السوفيات الثاني لعموم روسيا، وكيف عكست وجوه المستمعين معاني تختلف من فرد لآخر. ولكن أكثر لوحة شدتني إليها وعلمتني التعبير بعمق هي لوحة « يسوع في البرية » لكراينسكي.. رباه إنكِ إذ ترنين إلى تلك النظرات الضائعة في البرية والمطرقة على الأرض في آن لا تلبثين أن تقولي قبل أن تذكري يسوع « طوبى لك يا كراينسكي »، آه أية لوحة: برية من الغسق.. فضاء لا متناه من زغب الأُفول.. حجارة ضائعة لا تبصرها العين... فلاة غارقة في المغيب والأرواح والعدم. وعلى صخرة، جلس المعلم الحبيب الشاحب وفي عينيه حشد من الرؤى والأطياف والعذاب. لشد ما تأملت تلك الغيبة الطويلة في عينيه وذلك الحلم اليائس في الوجه العميق كأنه ينادي: يا أورشليم يا أوشليم.. يا قاتلة الأنبياء، يا راجمة المرسلين... هل فهمتِ؟ إنها ليست لوحة إنها قصة.

– أية قصة؟

– عندما جاءه المُجرب وقد صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة وقال له: إن كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة أن تصير خبزاً وأجابه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان وإنما بكل كلمة من كلام الله. إنني لن أنسى ما حييت ذلك الشرود الحالم في عينيه المجهدتين.

– حسناً وماذا تراءى لك أن الجبال تقول؟

وقامت وهي تلف حول جسدها ملاءة لتُعد المائدة.

– كانت تبدو كأطياف سوداء يزحف على أشجارها الخضراء الضباب ثم يتبدد، كانت تصرخ أنا راسخة إلى الأبد، أنا أبدية، أما الضباب فزائل.

– يا للمعنى العميق.

– هل تهزئين؟

– لابأس.. وماذا ستجعل جسدي وعينيَّ يقولان؟

وأشارت له بيدها ليحضُر إلى المائدة الخالية من أية زجاجة، فجرَّ المنضدة إلى السرير وجلس على حافته مستتراً باللحاف:

- سيقولان أنك غامضة أكثر من كونكِ مغرية وساحرة.

ووضعَتْ شريحة من اللحم بين طيتين من الخبز الأسود.

- هل أعجبكَ إلى هذا الحد سريري إلى درجة أنك لا تود مغادرته؟

أتعلمين، أجل، ما أروع أن تستلقي على سرير قرب نافذة فتري فيها السماء حالما تفتحين عينيك، تارة صافية زرقاء، وتارة تتلاحق فيها السحب، وفي الليل ترين القمر تغشاه الغيوم ثم تنزاح، إن السماء وحدها تملأ قلبك بالصفاء حتى يرتوي، إذا رقدت بهدوء وسكينة لترقبيها. فوق مشهد النهر الراحل.. إنها ليست نافذة إنها سينما حقيقية.

- ولكنه اليوم غاضب.. أنظر إليه كيف يثور.

وقامت إلى السماور تُعد الشاي وهي تغني:

إذا أيها الفولغا غدوتَ طوفاناً

يستحيل أيها النهر علينا أن نعوم

إذا يا حبيبي لم تبتسم

صعبٌ أيها الحبيب أن نحبك

وعادت وبيديها كأسان من الشاي، وسقسقَ الكناران لسبب مجهول وقالت:

- أنت تأكل مثل الوحش، وتضاجع مثل الوحش، وبريء مثله وعيناكَ صافيتان، أنت غريب وأنا أحبك.

فجذبها من ذراعها وألقاها على السرير.

- ما بكَ هل جُننت؟

فقال والطعام لا يزال في فمه:

- هيا لنُشبع الذئب الآخر.

وارتمى فوقها.. كانت تهب على المدينة ريح غربية شديدة، تصفر بين الأشجار بشدة، فتبدو كأن أرواحاً غريبة تعبث في البساتين، يُسمع لها ضجيج وأصوات عجيبة كدوي حجارة هائلة تسقط، كانت الريح تصفع المطر المتساقط فيتطاير في

الهواء ويدور في جميع الاتجاهات، فتبدو الأشجار كأنها في معارك عنيفة بين جانّ مشوهة غير مرئية. لقد تبدى وراء النافذة جنون الطبيعة بعينه، وكان يشيع دفء في الحجرة وضحكات من أعماق القلب. أخذ يقلب صفحات ألبوم الصور فُتشير إلى أصدقائها ويقهقهان سوية وقالت:

- هل يعجبك هذا؟
- ولكنه لا يروق لعربي.
- لِمَ؟
- إننا نحلم أن يصل بنا الحب إلى الكمال، أن يحول هذا العالم إلى أبدية، إنني لم أطلب المطلق عن طريق شجرة اللوز إلا بعد أن فشلت في الوصول إليه عن طريق الحب الأول.
- نحن أيضاً نأمل من الحب هذا.
- ليس هنا الفرق، إن الحب العربي في معظمه عذري، أذكر مثلاً أنه لم يذهب بي الحب في يوم من الأيام إلى القبلات، كنت أعلم أن الجنس يحوله إلى رماد، وكنت أتساءل كيف يمكن أن يحب الأوروبي الفتاة في النهار ويتمرغ في جسدها في الليل! وأذكر أنني لم أكن لأطمح للحب أن ينتهي بالزواج، لأن الزواج يلغيه ويحوله إلى إلفة، كنت أريد للمحبة أن تظل لحناً نورانياً، أريجاً من الماضي، يهلُّ في أيامنا الكالحة، يُومض في سنواتنا البخيلة، ويذكرنا كم كنا سعداء وكم كانت الأرض هي الجنة.

وأتذكر أيضاً أنني لم أكن أميل حتى إلى الحديث مع الفتاة، كنت أعلم أن الحب يتبدد ويضيع بالكلام، فلم أكن أُعجب بأولئك الفتيات المجاملات اللبقات اللواتي أصادفهن في سهرات العائلة، ويسألنني فجأةً عن أحوالي ومدرستي، ولم تكن تلفتن انتباهي أولئك الفتيات المعلقات على أبواب منازلهن سحابة النهار يرصدن الذاهبين والقادمين، كنت أتخيل الحب تُهديه الريح تَهبه السماء وليس من قبيل أن أذهب إلى بيت عمي ثم أغرم بابنة عمي، كنت أنتظر فتاة تأتي من وميض الغيم، تجيء من المطر، عيناها بروق الشتاء، وشعرها رحلات النسيم، ولم يكن ليؤرقني إذا ما أحبتني أم لا، كان همي أنني وقعت في الحب وتجولتُ في الفردوس.

- إنني على العكس أشعر أنه يقترب مني أكثر عندما نصبح في الفراش.
- ولكن في النهاية لن تحصدي سوى المرارة.
- حسناً كيف فشلتْ مغامرة قلبك الأولى إذن؟ فلجأت إلى شجرة اللوز!

وتمزق في نفسه ضباب السنين، وظهر وجه من أيقظت قلبه على الحب: عينان سوداوان.. فم رومانسي كئيب.. أرجعته إلى أيامه القديمة الباسمة، فقابل نفسه مراهقاً سعيداً، يحمر وجهه إذا لفحته الريح فقال:

- كنت في الثالثة عشرة من عمري، أسير بجوار والدتي، وكانت نسمات الربيع وأجراس الكنائس وابتسامات الناس تُذكر الروح باقتراب الفصح وقالت والدتي:
- لنقصد جوقة التراتيل، لقد ابتدأ أسبوع الآلام.

لبَثتْ والدتي مطرقة طوال الوقت. أما أنا فقد دهمتني رهبة قدسية كأنني أمام الحب ذاته حين لمحتُ فتاة صغيرة تحت الأضواء المتدلية من السقف، وامتلأ قلبي برقة الوجه الذابل والشعر الخرنوبي، كانت تجلس في طرف المقعد الأمامي، تغشى وجهها سحابة غريبة من الغموض، كأنها مزيج من المرارة والأنوثة والأمل. وكان ضياء المصابيح يُنير بقوة وجهها ويغمرها ببهاء رومانسي يذيب القلب. وأطلْتُ التحديق بجانب وجهها وكان قلبي يغرق رويداً رويداً في بحيرة من البراءة والدموع والحب. وكانت التراتيل تزيد من خدري فتُسري في عينيَّ شجناً سماوياً غامضاً. وفجأةً انسابت علي نظراتها وديعةً عفوية في نهايتها ظلال من الكآبة، فتبدى لي العالم مكتملاً رقيقاً لا تنقصه سوى المحبة ليشع بالسحر. كنت أرنو إليها كأن بيننا حكاية قديمة طويلة، كأنني أقول إلق ِ علي نظرة واحدة أيتها الفتاة، الكون يفقد رونقه بدون الحب، المحبة سر العالم، الحب قدس الأقداس، فكيف إذا كان بين من هم مثلنا! الحياة قصيرة قصيرة، ونحن صغار، نحن فقط من نصنع الخلود. وكان وجهها راجفاً حزيناً كأنه يقول أخي على يميني وأمي على يساري وعين الله ترقب الكل.. ظلّت صامتة غريبة منسية تختفي وراء خصلة من شعرها تزيد من غموضها، وكنت شغوفاً أن أهبها الحب لتدرك رونق الكون، لم أكن أطمع بشيء كنت أعلم أننا سنفترق بعد قليل وقد لا يرى أحدنا الآخر، ولكن أليست لحظات قليلة هي أبدية كاملة في جو الحب، وتحولَتْ إلي عيناها مرةً ثانية حذرة مستفهمة، ولمحَتْ مودة

عميقة قدسية في نظراتي اضطربَتْ لها، وراحت تنتقل بعينها بين الأعمدة ولوحات القديسين.

ولبْثُ أحدق بجانب وجهها بانتظار وغيرة، وتفرسني أخوها مرتين بحنق، وسرعان ما تحولَتْ إليّ للمرة الثالثة وفي عينيها ذلك الرضى الذي يظهر عادةً من إعجاب فتاة بشاب، وأجابت عيناي أنني أرمي إلى عاطفة أعمق، إنني أقصد حباً أقدس. وطال انتظاري للمعجزة الرابعة. وجاءت نظرتها أسمى، نظرة حب حقيقية، ولمحَتْ عينيَّ غريقتين ببريق عذب أعمق من هذا العالم، كأنهما تقولان إن الحب عندي أكثر فرحاً وأبعد غوراً وأعمق حزناً، وفي صحن البهو، عند الانتهاء كنتُ وأمي نغادر البوابة عندما التقت عينانا للمرة الأخيرة وترقرقت في وجهينا إلتفاتة الوداع نفسها.

صرت أبحث عنها في الشوارع، في الهواء، في وجوه الناس. سيطرت علي غبطة لا توصف، أحسست كأنني رحلت إلى الجنة فبدأت أبحث عن الله بين الأشجار والطيور، أنظر بذهول إلى كل شيء، أستيقظ، وأسير في الحارات، لا أعرف لأي شيء، كأن الشوارع هي مصدر عشقي، كأن الكنائس والليل والريح هم مصدر حناني، كنت جد مبتهج، مغتبطاً بالجدران العتيقة بالسماء بالشمس، تغازل مخيلتي مشاعر لذيذة غامضة. يا إلهي إنني في حلم.. أيتها السماء أيتها الحجارة أتراني ألتقي بها مرة ثانية؟

ولم أعثر لها على أثر، وبعد العيد بيوم فوجئت بأخيها في مدرستي، وحالما رآني مال نحوي بحنق، ورأيت في عينيه كأن أخته لا تزال تفكر بي وتسأله عني، وأمسكني من ياقة القميص ودفع بي إلى الجدار، ثم كور قبضته بعصبية، ولكنني ظللت هادئاً وعيناي مليئتان بالرضا، فقد كنت أشعر بفرح غامر عميق لمجرد أنه أخوها، ولم يهمني إذا ما ضربني أم لا فقد كان يكفيني أنني أراه. واسترخت قبضته شيئاً فشيئاً وهو يتأمل وجهي، وكأنه لمح في عيني ما رآه في عيني أخته، وبدا وجهه كأنه ينطق: أتحبها حقاً.. أهذا هو الحب؟ أهو بهذه السن؟ ثم جعل كأنه يمازحني وتركني وذهب، ولكن نظراته الأخيرة كانت مليئة بالعار. أما أنا فقد نظرت إليه وهو يبتعد ودمدمت شفتاي رباه.. هذا هو أخوها فعلاً.

وتساقط المطر في اليوم التالي، كأنه وداع أخير للبرد، وغادرت المنزل كئيباً، كان الجرح الحبيب قد بدأ يتحول إلى يأس وندوب. مشيت ونظراتي تكنس الشرفات والأرصفة والنوافذ، ومررت بالكنيسة ونظرت بذهول إلى المدخل وتذكرت بأسى كل شيء. في مرة سابقة.. وقرب هذه البوابة... ألقت علي نظرة الوداع الأخيرة، وقفتُ واهناً شاحباً لدرجة أن إنساناً ما يلقي على مسامعي كلمة سيهز روحي هزاً وكان المطر يتساقط ويزيد من كآبتي.

وتناهى إلي دوي آلات إيقاعية في بهو الكشافة، ووقفت أرقب أناساً متحلقين حول جوقة موسيقية، ثم تحولتُ إلى تمثال ملون للعذراء وطفقتُ أقرأ المزامير المثبتة في أسفله، وفجأةً، وقرب جوقة العازفين، لمحتها بين مجموعة من الفتيات، سمراء نحيلة ضامرة الثديين، ترتدي قميصاً أحمر من الصوف.. يا إلهي كيف تجدد العالم.. وكيف أحسست لوهلة أن الخلود والأبدية وقدسية الروح بديهيات منطقية تشيع من هذا المكان، وكان باستطاعتي أن ألحظ أن وجهها أشرق فجأةً حالما رأتني كأنه يقول « أيُعقل؟ أهذا أنت؟ ». وكما تشع النجوم في ليل حالك شديد العتمة هكذا راحت عيناها تضطرمان، ثم تورَّد خداها وخفضت رأسها وهي تذوب خجلاً، ورحتُ أرنو إليها وإلى التمثال بقلق وسعادة.. كم تغير العالم في لحظة واحدة.. كم التهب الهواء فجأةً كأنه يعدنا بالخلود.. أية معزوفة حب تنطلق من الأبواق القدسية؟ كان وجهها قد غدا نورانياً خجولاً، فتحولَتْ إلى مجموعتها، ولفَّتْ ذراعها حول كتف إحدى الصديقات وألقت علي ابتسامة لا تحمل سوى معنى واحد: « إنني أفكر بك منذ ذلك الحين »، وخيل إلي أن كل هذا ليس سوى حلم، وما يجري حولي ليس سوى قصة وأشياء رومانسية لها هالة قوية كأنها حقيقة. لقد غدت الصبية مرحة مرحة، وراحت تنتقل من مكان إلى آخر، وفجأةً اقتربتْ مع صديقة لها من التمثال وراحتا ترنوان إلى المزامير، وارتعدْتُ، وسمعتُ قلبي يدوي، وكانت نفسي تهتف: قل شيئاً.. قل شيئاً، ولم أقل، ولم أقل، ما عساي أقول؟ هل أسألها عن دروسها.. هل أحدثها عن برودة الطقس؟ هل هذا هو الحب؟ كان ما في داخلي أعمق من هذا بكثير، كنت أخشى على الحب أن يتلاشى، كنت أشعر بأعماقي أن العالم لم يصل بعد إلى تلك المرحلة التي تجعل اللقاءات الطويلة محبة خالصة، تحولتُ عن الجوقة ثم مضيت،

وبقيتُ عاشقاً ينشد المطلق فقط، لا يريد أن يقبض على الحب حتى لا يتحول من لهب إلى كلمات.

دخل حزن رقيق إلى قلبي، ودخلتْ بنفس الوقت سعادة غامضة لا توصف، سرت في الطريق متورداً قلقاً منتشياً، وكنت أقول: لا لقاء بعد اليوم، لا لقاء، ورددت شفتاي لأول مرة قصيدة في حياتي:

المطر يتساقط

والحزن غريب

وداعاً يا حباً لن يعود

وداعاً

يا وعداً لن يعود

عدت أقف على الأرصفة، أنظر إلى الطريق والناس حتى تدمع عيناي، وأتأخر في الليل، أتجول وحيداً بين نجوم متلألئة، وأجلس على عتبات البيوت تابعت البحث عن المطلق، عن حب عنيف أكثر عمقاً، ولفحتني تجارب سعيدة مرحة، ولكن لم أصل أبداً إلى تلك الدرجة من الصفاء الذي كنت عليه في الثالثة عشرة من العمر.[١]

– ماذا تقصد بالمطلق؟

– الشوق إلى الحياة في شكلها السامي الأخير، مثلاً بالنسبة لي كأن أعيش إنجاز تلك اللوحة التي لم يقدر على رسمها دافنشي نفسه، وقد تُعاشُ بأعلى ذروتها عن طريق الحب، دون أن يصل إلى الجنس لأنه عند هذه النقطة يبدأ العد التنازلي لزواله.

– لعلك تتمنى أن تراها الآن ثانيةً.

– إنني لا أطلب من الطبيعة أن تعيدني إلى هذه الأرض ثانية إلا لكي تتكرر رجفة الروح تلك بالذات قبل غيرها من الهنيهات التي كانت تأسرني بها سعادة مطلقة شاملة.

– مَنْ أجمل الروسيات أم العربيات؟

---

[١] القصة كاملة في روايتي «صلوات الحب السبع».

– عندنا أقل جمالاً ولكن في عيونهن ألق يخطف القلب، ألق يجعلني أكنُّ لهن ذكرى قدسية بينما كنتِ تهزئين من صور الألبوم منذ قليل.

وأخذ يعيد تقليب صفحاته بينما تناهى الظلام وراء النافذة وقصف الرعد بشدة، كان يبدأ كطلقات متتابعة ثم ينفجر كآلاف القذائف فوق المدى، واشتعلت السماء بالبروق وبدت كأنها ستهطل ناراً فوق النهر فأخذتْ تغني:

تتحدر تلك الأم « الفولغا »
بمجرى عميق وشاسع وطويل
وتثور الريح والأمواج والسماء
فلا يُرى شيء أبداً
سوى ما يخطه ضوء زورق وحيد
سوى ما تخطه النوارس البيضاء
وفقط برَجُل ذي معطف مخملي
تتحدر تلك الأم « الفولغا »
إلى ضفة بعيدة مجهولة

–هل تعني كلمة « الفولغا » الأم.

–لا.. الفولغا بلغة الأجداد تعني «الساطعة» أو « الشفافة » أو « البيضاء » ولكننا نحن نلقبه بالأم لأنه أطول أنهار أوروبا، ولأنه يُطعمنا من سمكه وكافياره ويسحرنا بروعته وينقلنا من مكان إلى آخر.

–هل الكافيار من الفولغا؟

–نعم داخل السمك الكبير العتيد المسمى « أسيوتر ».

–ولكن ما كل هذه الإمضاءات الكثيرة هؤلاء جميعاً أصحابك؟ أواه كم من السود وكم من البيض وكم من السمر!!

–من الزنوج واحد فقط إسمه تِمبو، لذيذ كالشكولاه، ليلة واحدة فقط، وفي الصباح جلب لي قدر ماء إلى الفراش لأغسل وجهي زاعماً أنه هكذا عندهم في أفريقيا يفعل من يريد ملاطفة حبيبته، ولكنني قلت له: لا حاجة إنني بيضاء على كل حال، وكسرت له قلبه.

- حسناً وكم عددهم كلهم؟
- لست أدري.. لا أعرفهم كلهم!
- هناك أصحاب لكِ لا تعرفينهم!؟
- أقصد هناك من ضاجعوني ولا أدري من هم.
- ويلكِ كيف هذا؟
- كنت مدعوة ليلة رأس السنة الماضية إلى حفل أقيم في مبنى الطلبة حيث من المفروض أنكَ تقطن هناك، ولكن المجتمعين بدوا في حالة شاذة من التهتك لم أعهدها من قبل، فمنذ البداية بدت معظم الطالبات يرقصن نصف عاريات وبدا كثير من الشبان كأنهم يلتهمونهن أثناء الرقص، وكان صخب الموسيقا أشبه بالضجيج منه إلى العزف والغناء، أما طاولة الخمر فقد حوتْ أكثر من مائة زجاجة من الفودكا والكونياك والشمبانيا والنبيذ، وفي حوالي الساعة الحادية عشرة رأينا أفواجاً كثيرة من النساء والرجال كانوا يحتفلون في الشوارع ينضمون إلينا بحيث اضطررنا إلى فتح أبواب الصالة فجرى الرقص في « الكوريدور »، وحتى الغرف أيضاً لم تتسع، وقد عَصفت الفودكا بالرؤوس فبدا الجميع أشبه بالمجانين، وكانت الضحكات تنطلق من الأفواه عنيفة متتابعة حتى ليبدون مسعورين أكثر من كونهم سعيدين، وكانت تنبعث من الغرف قهقهات منتشية داعرة فقد كانوا يمارسون الجنس والأبواب مفتوحة على الكوريدور الصاخب، وكنت تجد نساءً في الستين من العمر يرقصن لا مباليات دون أن ينال منهن التعب، وموسيقا الروك الأمريكية تدوي والحشد كموج البحر يعلو ويهبط، وفوق الجميع معلقة صورة لينين وهو يقول ادرس ثم ادرس ثم ادرس. وكان الذين يرقصون بجانب النوافذ يدعون كل من يمر في الشارع للدخول، وبدت كثيرات من المخمورات بصدور عارية، أو رفعن تنوراتهن حتى الخصر، وكان الزنوج يصولون ويمرحون فلا يتركون امرأة من شرهم، وقبيل الثانية عشرة بقليل كانت المائة زجاجة قد نفذت، أما أنا فكنت قد شربت من الأصناف الأربعة، مما جعلني أحس وكأنني على موج البحر، وكنت أرقص في البداية في الصالة فجعلت أتنقل من يد إلى يد حتى وجدت نفسي أخيراً في نهاية الرواق، في حالة من النشوة والإرهاق لم أشعر بمثلها أبداً في حياتي، وعند الثانية عشرة، قطع الشياطين الكهرباء عن المبنى

كلـه، ودوت الهتافات وأصـوات الألعـاب الناريـة واستغاثات النسـاء المـاكرات وكنـت بحالـة مـن اللـذة والغيبوبـة لـم أعِ خلالهـا سـوى أن الـذي كـان يراقصـني قـد أخـذ يضـاجعني علـى الأرض تحت لوحـة لينين مباشرة، ثم ذهـب ومـر غيـره فأخذ يفعل معي أيضـاً، وأتـى آخر ثم رابع وكنت خَدِرَة زائغة لا أشعر سوى بطلقات الرصـاص الحادة في الخـارج وبعيني لينين فوقي تقولان ادرس ثم ادرس ثم ادرس، ما بك؟ أين تقوم مسرعاً؟

- لا شيء!
- تبدو وكأنك تفر من عفريت.
- لا تقنعيني أنه لم يكن بإمكانكِ منعهم.
- ولماذا أمنعهم؟ كان عيد رأس السنة، وكان الجميع مسرورين.
- حقاً؟
- قلتُ لك كنت سكرانة.

وعبر الدمع إلى عينها وكان يسرع بارتداء ملابسه.

- أيعقل أن تتركني بعد أن....

ولم يقل شيئاً.

- قلت لك كنتُ سكرانة.

أطبق مرسمه واتجه نحو الباب.

- أنتم العرب كالأطفال، تخافون من الصراحة.

واندلعت من السماء ثلاث شرارات متقاطعة جعلت ليل النهر نهارا، هدر بعدها رعد شديد إلى درجة أن كلاً منهما أحس كأن قنبلة ارتطمت به، وقالت:

- أيمكن أن تذهب في هذه العاصفة.

فرد:

- مظلمٌ هو الليل، ومظلمة هي مسالك زارادشت.

وأطبق الباب وراءه، فهتفت:

- إلى الجحيم.

وعادت تغني:

إذا أيها الفولغا غدوت طوفاناً
يستحيل أيها النهر علينا أن نعوم
إذا يا حبيبي لم تبتسم
صعبٌ أيها الحبيب أن نحبك.

------- ٤ -------------------------------------

إنَّ العالم ليملأ القلب بالمرارة مثلما يغشى هذا الضباب الصباح، ردد نضال في نفسه وهو يرنو من نافذة الصف، كان الكون غريقاً في ضباب حليبي مسحور، كانت النافذة نهاية العالم، وبعدها لا شيء مزيج غريب من البخار والأرواح. كان يحس بثقل في قلبه، كأنه بداية حزن تركه لسبب غريب ينسلُّ إلى صدره. لقد نظر وهو قادم إلى البيوت، ورنا إلى المراعي، حدق في الكنيسة، وانسابت نظراته على القبور، وقال في نفسه هذه البيوت للسكنى، وتلك المراعي للأبقار، هذه الكنيسة للصلاة والمقبرة للموتى ولكن المدينة بمجملها لأجل أي شيء، حياة الإنسان لأجل ماذا؟ أما الآن فهو يفكر أنه منذ قديم الأزل، في تلك الأيام التي وجد الإنسان نفسه فيها وحيداً على الأرض، حوله سهول مقفرة وضفاف بحيرات لم يطأها أحد بعد، نظر إلى السماء، نظر إلى الجبال وتساءل من أنا؟ ولماذا أعيش؟ ولما لم يجد إجابة أجهشَ بالبكاء وقام يبحث عن غذائه، ولا زال حتى الآن.

ظل مطرقاً طيلة حصة اللغة الروسية، وكانت المُدرسة تسترق النظر إليه متعجبة، وهو يطيل التحديق في الضباب، صامتاً، فإذا تكلم يجيب بعبارات مَقتضبة، بحزن غريب ممزوج بتفكير عميق لا ينقطع، وقبل أن يُقرع الجرس بدقائق سألَتْهُ:

- هل أنت بخير؟

ولم يجب بشيء، أيعترف لها أن قبضة العدم تعتصر روحه، أيقول لها أن لحن الضياع يقرع حياته، أيُبحر بها على موجات الذعر ويلقيها على شاطئ الجنون. كم هي المرارة التي يشعر بها المرء عندما يجد نفسه يكبر ثم يذوي ويقترب من الموت دون أن يدري لماذا يعيش؟... وقرع الجرس وغادرت المُدرسة مع الطلبة اللاتينيين وظل كل من زاهر الشيوعي ومراد النيتشوي وفيليب المؤمن يحدقون به كأنهم يرونه لأول مرة، لقد بدا لهم فعلاً بسحنة غريبة لم يسبق أن ميزت وجهه، ضاعف الشحوب من غرابتها وهو لا يدري وقال يائساً دون أن يتلفت إلى أحد:

- لا يدري الإنسان لماذا مُنحت له الحياة، فكيف عليه أن يقرر ماذا يفعل بها!

-ولم ينبس أحد ببنت شفة ظلّوا يحدقون به كأنه شبح من الأشباح مستفسرين فأكمل يهذي:

-والأرض متروكة للقوى العمياء، للغرائز، ملايين من السعادين والقرود والبشر انقرضتْ، فما هي حياة الإنسان!

وازداد وجهه غموضاً وصوته يأساً:

-سعيداً أم حزيناً لماذا يعيش الإنسان.. آه يا للمرارة.

فاقترب فيليب منه بهدوء وقال:

-يا أخي.. ليس أحد منا يعيش لذاته ولا أحد يموت لذاته، لأننا إن عشنا فللرب نعيش وإن متنا فللرب نموت، وإن عشنا وإن متنا فللرب نحن.[١]

ولم يرُق هذا الكلام لزاهر فاقترب هو الآخر من نضال وقال:

- كن قوياً.. وتذكر واجبك.. إن أية حضارة ستنهض وحدها بمعزل عن ملايين الفقراء الآخرين لن تهنأ وستتعرض للكيد من هؤلاء المنسيين حتى تسقط، إلى أن تأتي الدولة الأممية التي ستنشر العدالة فوق البشرية جمعاء. ونحن الذين سنبني هذه الدولة يا نضال تذكرْ ذلك، تذكرْ:

شيوعيون نحن

نحن عالماً جديداً نبني

ولم يُعجب كلامهما مراداً فاقترب منهما وقد صنعوا حلقة حوله:

- إن ضياع الإنسان في هذه المرحلة سببه أنه معبر، فهو ليس حيواناً حتى يستغرق في بهيميته وليس كاملاً حتى ينكفئ إلى ألوهيته، فهو لا يزال يتمزق حائراً على الطريق تشده الغرائز العمياء إلى أسلافه المعتمين حيناً ويتحرق شوقاً إلى الكمال حيناً آخر.

فقال فيليب:

- يا إخوتي باطل كل ما في هذه الدنيا[١]

فرد زاهر بحنق:

---

١ - الكتاب المقدس.

– لماذا إذن؟ لماذا عندما نعلم أن سر الحياة باطل وعذاب علينا أن نخوض في وحولها؟

فأجابه:

– اتق الله واحفظ وصاياه فهذا هو الإنسان كله.[1]

فقال مراد:

– إنكما لا تفعلان شيئاً أكثر من أن تزيدا إغراقه في العدم أكثر فأكثر، إنني أؤمن بأن على الإنسان أن ينشأ منه ما يتجاوزه بعكس فيليب الذي يدعو إلى نبذ العالم، المسيحية هي نفسها الشيوعية لأنها تنادي بالمساواة: « ولكنني لا أريد أن أُحسب من هؤلاء المنادين بالمساواة لأن العدالة علمتني أن لا مساواة بين الناس وأنه من الواجب ألا يتساووا... إن الحياة بحاجة إلى ارتقاء المرتفعات فلا غنى لها عن الدرجات والدركات ليعارض المنخفضون المرتفعين، إنها لفي حاجة إلى التفوق على ذاتها وهي مُتجهة إلى الارتقاء... أما أن تعتبر الإرادة كل إرادة أخرى مساوية لها فهو مبدأ معادٍ للحياة وطريق سري إلى العدمية»[2] التي آل إليها صاحبكم.

وظل نضال مطرقاً كأنه لا يعنيه ما يدور، لقد غدت الحياة بالنسبة إليه كتلك النافذة المحجوبة بالضباب فهو لا يدري أين يتجه.

وقال فيليب:

– الجميع يلهثون وراء الدنيا، والمسيح يصرخ على الصليب متألماً، يطرق الأبواب متعباً هزيلاً شاحباً ولا أحد يشفق عليه، إنهم يثرثرون في الداخل أو يخمرون أو يتثاءبون، ولابد من الصحوة، لابد من مسيحي حقيقي يفتح الأبواب للطارق، يمسح جراحه ويقبله ليدخل ويذكرهم بأنه باتباع الناموس نخلق تناغماً بيننا وبين الله يجعلنا سعداء فلا نسأل أنفسنا لماذا نعيش.

فأجاب مراد:

[1] – الكتاب المقدس .

[2] – نيتشه .

– إن السعادة لمتسلق القمم، لشديد الإرادة، ذلك ما يُسمى بالحكمة، « تريدنا الحكمة شجعاناً لا نبالي بشيء، تريدنا أشداء مستهزئين لأن الحكمة أنثى، ولا تحب الأنثى إلا الرجل المكافح الصلب ».[١]

فقال زاهر:

– أُفٍ منكما ومن الميتافيزيقا ومن الفلسفة، بينما في العالم عدة مليارات من الجوعى لا أحد يفكر بهم أو يذرف دمعة، يقابلهم عتاة أميركيون متخمون لا يفكرون سوى بجلدهم.

فقال مراد:

– إن أولى المجاعات حدثت في أثيوبيا الماركسية.

وازداد ذبول نضال وازداد وجهه اصفراراً فخاطبه فيليب:

– قال يسوع تعالوا إلي أيها المتعبون وأنا أريحكم.

وقال زاهر:

– فلسطين تنزف.. البرتقال السليب ينادي.

وهتف مراد:

– قال الفحم مرةً للماس: من أين لكَ هذه الصلابة؟ أفما نحن نسيبان؟... وأنا أقول لكَ أفما أنتَ أخي، فمن أين لكَ هذا الخَور؟[١]

وقال فيليب وقد غدا صوتاً رقيقاً:

– المسيح يطرق الأبواب هلاَّ فتحت له؟

وقال زاهر بعطف:

شيوعيون نحن

نحن عالماً جديداً نبني.

وقال مراد:

– لقد آن للإنسان أن يزرع ما يُنبت أسمى أفكاره. [١]

كان أبسط سؤال يذهب به إلى متاهات من الاحتمالات، كانوا يتكلمون ويتكلمون ويتكلمون وهو صامت غائب خائب، كل شيء جائز، كل شيء محتمل، لم تكن نفسه

---

١ – نيتشه .

في يقين من شيء، كان يتعذب من أبسط قضية، تؤرقه أوهن الخيوط وتقوده إلى رحلات من الشكوك والضياع، تركهم ونفسه تهذي لا شيء مؤكد، لا شيء أكيد، ولم يعد يستطيع أن يجد بوابة للخروج من الأسى.. هرب إلى النهر.. بكى مثل طفل صغير، ركض على الضفة وكأنه يفر من خطر ما، ثم جلس على الحصى ليلتقط أنفاسه، تساقطت دموعه الأخيرة على الموج.

غالباً ما تطارده هذه السيمفونية عند حلول الخريف، عندما تلفح الريح الأوراق الصفراء، فتتطاير فوق الأرصفة الباكية، تُداعب الكآبة قلبه بلسمات مغرية، يتركها تتسل إلى نفسه كما يفعل لحن حزين هادئ، بهذا الألم الغريب يدخل جنة الخريف، يسير في الشوارع ولا شيء يشبه حزنه مثل الرذاذ المتساقط والسماء الكئيبة يمضي إلى طرف المدينة، ويتوغل بين الحقول وحيداً، فإذا طارت ورقة صفراء وعلِقتْ في عنقه، تذكره بمرارة أنه مثل هذه النبتة سيذوي ويموت، وتطير الأوراق الصفراء وتسبح فوق السواقي، الضباب يلف العشب البعيد ويحجب المياه، ثم يسقط الغروب فجأةً ويسأل نفسه، لماذا أنا هنا، بين هذه الأشباح..؟ هكذا كل عام، وعندما يجيء الشتاء، وتطير الطيور المهاجرة فوق الروابي، ينظر إلى الأشجار العارية ويزداد عذابه.

واليوم سار على ضفة النهر طويلاً، كما لم يحدث في يوم من الأيام، كأنه يبحث عن حلول سحرية للأرض بين الأمواج الرمادية والعشب الذاوي. الضباب متناثر فوق البيوت القرميدية البعيدة، والغيوم معتمة ثقيلة فوق المدى، سار وهبوب رياح النهار يلوح أشجار الفيافي ويلفح وجهه.

كانت قدماه تطآن العشب الذاوي، تتبعان الأمواج إلى حيث لا يدري.. نهر حزين يلفه الضباب، ورذاذ بطيء ينسل من السماء، يداه في جيوبه، وقبعته فوق رأسه، أشجار وأطيار وسحب، بيوت وتلال وريح: يا خوفي من الصدى، يا خوفي من الأيام، يا خوفي من الريح.

ونظر إلى السماء. مبكرة تهاجر الطيور، تعبر فوق التلال، الشتاء يُنذر المزارع، موعد الحقول مع الريح، موعد المدى مع الأمطار: ليتني أُبحر معك أيها النهر، أرحل إلى نهاية العالم، ولا أعود ولا أعود.

ولمح شجرة من بعيد تقف خارج دغل، وحيدة تعبث بها الريح، فهرع سريعاً مرحاً مردداً: قولي إذن! أنتِ وأنا والضباب والبرد، تلوحنا الرياح، قولي إذن شيئاً أيتها الشجرة، إن المطر يتساقط مدراراً، يهطل على المراعي والكروم والأراضي المنسية وأنت وأنا وحيدان، وإنني سعيد، جد سعيد، بعد شهور طويلة من سجن الجسد.

وقف طويلاً تحت الشجرة يرقب معجزة المطر، ثم تساءل لماذا أنا هنا؟ تائه بين المروج والرياح والأعشاب! وحين عاد إلى النهر، ونظر إلى المياه، هتف من قرارة نفسه، يا رب أعطني يوماً واحداً فقط من السعادة التي لا تشوبها شائبة.[١]

وحيداً هو والنهر والزمن، تسوقه قدماه إلى مدى غامض، مدى من الأسرار، تنتابه غبطة ووهن لذيذ، يتساقط مطر على قبعته وتصفح الريح معطفه فيبتسم في سره ويُخفي وجهه في الضباب:

لو تعرف هذه المياه عطشي، لو تعلم هذه الأشجار والأوراق الصفراء عذابي، إلى أين بعد يا روابي الأحلام، إلى أين تمضي أيها النهر! إنني أتبعك بلا يأس، ولتبتلعني الرياح وتعصف بي الزوابع... منسيٌ أنا ولا أحد يفكر به... الأشجار أصبحت تعرفني والسواقي أَلِفَتْ خطاي، يداي في جيوبي، أمضي والطيور تدور حولي ترفرف فوق النهر، تلامس بجسدها الموج وتلاحق السماء الرمادية.

خلا رصيف النهر إلا من خطاه ورذاذ المطر، كان يسير يكره أن يجرح أحد صمته، أو ينقذه من تأملاته، المطر يغازل صفحة النهر، يداعب وجهه وينفذ إلى أعماق نفسه... خذني معك أيها النهر... ولكنه لم يسمع نداء روحه... خذيني معك أيتها المياه... همست شفتاه وعيناه تتبعان الموج يرحل حتى يصل إلى السماء.

ابتعد كثيراً حتى لم يعد يعرف أين هو، وتلفت في كل الاتجاهات، فلمح الغابة من بعيد، فعاد أدراجه... الحزن يلفه كما يغطي الضباب الحقول. كيف يتسرب الحزن إلى قلبي؟ ردد، آه... إنها الوحدة.. أسافر لوحدي... أضحك لوحدي.. لست سوى تفكير عميق ممزوج بضحكات بلهاء في الشوارع وكآبة وعزلة... عزلة لا نهاية لها. وعادت تعصف به باستمرار زوابع أسئلة مخيفة: من أنا؟... ولماذا أعيش؟ يا

١ – بتهوفن .

إلهي كيف يُدخل هذا التساؤل الحزن إلى عروقي ويقضم قلبي، لماذا يلاحقني كدين فينسج هُموداً غريباً حول روحي؟ ركض إلى الغابة مستنجداً، أحس كأن روحه موصولة بذرى الأشجار البعيدة وهو يمضي باحثاً عن حقيقة غريبة هناك تعيد الهدوء إلى روحه.. وكعاشق عثر على حبيبته الأولى، ركض تُكسر قدماه بقسوة زجاج الجليد المتشكل على العشب... ريح صقيعية غريبة تسوق غيوماً ثلجية في السماء كانت تسوط وجهه وتمنعه من التقدم، الأشجار العملاقة الخضراء بدت كالسراب من بعيد، كلما اقترب منها ابتعدت عنه، كان يمضي وروحه تطير قبله وتسبقه إلى الغابة... ساقية غريبة سدَّت عليه الطريق، وكلما تبعها بدت موصولة في السماء، عاد الحزن يعضُّ قلبه وهو يرنو إلى الطيور تزعق بغرابة في السماء وكأنها أرادت أن تشارك الساقية والريح في منعه من الدخول.. طيور سود كانت تخرج من الغابة تمر أمام وجهه وتعود لتختفي في عتمة الأشجار الكثيفة. ألقى نظرة أخيرة على الغابة وعاد كمن فقدت نفسه الأمل نهائياً في الخلاص. الليل يهدد بالسقوط، ويُسمع صوت ارتطام ريح قوية في الأشجار تُدنس الهدوء الإلهي لنباتات وشجرات طويلة وقصيرة عارية تجمعت في نهاية الغابة، وقد بدت سوداء في الضوء القليل المتبقي من النهار.

ويقطع عليه حلمه ضجيج الرعد فيوقظه من جنونه في البحث عن أسرار غريبة مدفونة في أشياء الطبيعة، كانت الريح تصخب، والنهر يهدر وقدماه لا تفارقان الضفة وكأنه صخرة من صخورها، واختلط ضجيج الطبيعة بمطر غزير، فأسرع يقطع سهبا تحت سماء عاصفة وقدماه تغوصان في الأرض وتمتلآن بالوحول. ووصل إلى الغرفة غريقاً، فنزع ملابسه وغطس في السرير، لم يكن متعباً، ولكن كان يشعر أن نفسه ليست أكثر من خرقة بالية، وغمر جسده بالغطاء، لم يكن مقروراً ولكن كان يحس أن روحه في وادٍ من الصقيع. وكان يتساءل: ما هذا العالم؟ وكيف استقر على هذا الشكل؟ قطرة ماء أنا من الأمطار الهاطلة على الجبال.. فقاعة زبد في فم محيط.. فلا أنا أفعل شيئاً، ولا البحر يشعر بكياني. وتملكه النوم فجأةً، ووجد نفسه من جديد على ضفة النهر، تائهاً يطوف في الضباب والجبال والحقول والقرى، يسير بين دروب البيوت، بلا أمل، بلا عزاء، يطرق الأبواب ولا يفتح له أحد، وحيداً

بين آكام لوحها البرد، يسأل النهر فلا يجيب، وتحت سماء تذرف الدموع، يبحث عن خلاصه فيطارده النداء المرعب « من أنا؟ ولماذا أعيش؟ » يتصاعد كبخار أزرق من كل شيء، فيهيم على وجهه ويلاحقه الصدى، فيتوه بين الأكمات، والنهر صامت صامت ينظر إليه ساخراً، ويحس ضحكات تهرب من بين أمواجه كأنها أرادت أن تواسي نفسه، « دعني أحزن أيها النهر فقد تعبَتْ عيناي من السراب والآلهة والمدى »، ردد في حلمه. ويوقظه حديث الروسيين الذين يشاركانه الغرفة:

- إن وجهه أصفر كأنه خارج من قبر!
- لعلها الحمى.. انظر إلى ملابسه.

ثم يغوص من جديد إلى أعماق لجة النوم.

الفصل الثاني

------- ١ --

تردد ست مرات إلى المرحاض في الصباح، كان مبنى الطلبة خاوياً، فالجميع الآن في الصفوف عدا ريتا، التي لحظت من نهاية الرواق أن إسهالاً شديداً قد يكون ألمَّ به.

لم تكن في المدينة أية طالبة عربية، وفجأةً في الخريف ذاك، وصلتْ فتاة من بيروت تدعى ريتا إلى معهد الهندسة جعلتْ أي شاب عربي يملك في المدينة صاحبة روسية أو اثنتين أو ثلاثة أو عشرين ينفضُّ عنهن فجأةً ليُشغل فقط بذلك الوجه الذي لا يوحي إلا بحب عذري يمسُّ أعمق أغوار الروح. كانت ريتا فتاة في الثامنة عشر، سوداء الشعر، لها عينان سوداوان آسرتان تجعلان المرء ما إن يشاهدها حتى يقول هذه هي الفتاة التي حلمت بها طوال حياتي، لقد أحدثَتْ اضطراباً في مبنى الطلبة يكاد يكون خيالياً وهي تسير في الممرات وتُلقي على كل شاب نظرة تصدمه فيظن أنه هو من اختارته من بين الجميع، تجعله يأرق طيلة الليل أو يراها في أحلامه، وكانت هي لا تزال منتشية سعيدة برحلتها وبمشاهد المدينة كان ذلك يزيد من ألق عينيها، أما الشبان المساكين الذين لم يروا فتاة عربية منذ مدة طويلة فقد أخذوا يرفعون أصوات أجهزة التسجيل إلى مداها لكي يُسمعوا الفتاة، ويختارون من الأغاني ما يُعبر عما في أعماق نفوسهم آملين أن تلتقطها أذناها، فكنت تسمع أغاني فيروز وماجدة الرومي وعبد الحليم من نهاية «الكوريدور» بما لم يعهده النظام الصارم الذي كان سائداً قبل هذه المرحلة – مرحلة ريتا – ولم يكن أي منهم يأمل أو يساور فكره شيئاً من قبيل مضاجعتها، كان الجميع الآن يفكرون في الحب، لقد عادوا مراهقين صغاراً عفيفين مقتنعين أن حياتهم الجنسية في روسيا لم تكن سوى باطل وأن الحب هو جوهر الأقداس.

فتحتْ ريتا علبة الأدوية التي في حقيبتها وأخرجت حبوباً مضادة للإسهال ومضت إلى غرفته فألفته وحيداً نحيلاً مكدوداً، وكانت الغرفة معتمة ونور واهن من ضياء الصباح يخترق الستائر إلى وجهه الشاحب وقالت بعذوبة ارتعدَ لها وهو يرنو إلى ذلك الوجه السماوي:

– ألستَ مصاباً بإسهال؟ هل أتصل لك بالإسعاف، أم تكتفي بهذه الحبوب؟

فنهض ذاهلاً وتناول الدواء دون أن تفارق عيناه وجهها فقالت:

– ولكن هذا ليس كافياً سأعد لك شاياً حالاً.

ومضت مسرعة، لم يكن نضال قد رأى ريتا بعد أو سمع عنها ودُهش تماماً وهو يراها قرب فراشه بشعرها الأسود المتماوج على كتفيها وعينيها السوداوين الحالمتين، واستلقى من جديد متسائلاً: تُرى من هي؟ أين رأى هذا السحر وتلك البراءة، وأخذ يتراءى له عالمه القديم يومض ويختفي كالشهب، عشق غريب بدأ يستيقظ في داخله لفتاة عرفها في طفولته النائية، المدرسة الابتدائية.. المقاعد الخشبية، الصف البالي العتيق.. الفتيات الخبيثات.. وسمر.. إنه الوجه ذاته الذي انبثق أمامي منذ لحظات. راح يتذكر. « وكانت ترتدي تنورة مدرسية سوداء، وتعقد شريطتين بيضاوين حول شعرها، وتجلس في المقعد الأول حزينة صامتة تنظر إلى أشجار الأكاسيا، صوت خافت كأنه حديث راهبة، ووجه أبيض كشفق الفجر، كنتُ أحس أن رابطة إلهية قوية يجب أن تنشأ بيني وبينها ولكن لا أعرف كنهها، أشعر فقط أن هذه الفتاة قريبة إلى روحي حتى تكاد تلامسها وتقبض عليها بين حين وآخر، فأحس أن علي أن أفعل شيئاً لأبعث دفئاً في قلبها فأشتري لها حلوى وأرافقها إلى مرجوحة المدرسة.

ويأخذني والدي إلى مدرسة أخرى، وأعود بعد أربع سنوات إلى مدرستي القديمة، لا أذكر نفسي سوى أنني أركض في الباحة الخالية وأنظر من نوافذ الصفوف بلهفة بحثاً عن سمر وأخيراً أجدها لا زالت تعقد شريطتين بيضاوين وتجلس صامتة صامتة.

ويُقرَع الجرس...

تحدثنا بسرعة وتحدثتُ بشوق، كانت كلماتها باردة كصقيع الليل، تذكرتُ سمر الصغيرة، قلبها يضطرم، وصوتها يُلهب صدري. وفجأةً أسمع إحدى الطالبات تناديها: منى.. منى تعالي.... رباه، من منى هذه؟.. أمسكتها من يدها قبل أن تجري وقلت لها « أنت لست سمر؟ » ضحكتْ بلا اهتمام وقالت: لا أنا منى.

– وسمر ألا تعرفينها إنها تشبهك؟

- سمر انتقلت إلى نابلس!

صرتُ أذهب إلى الأرجوحة وحدي، ويتساقط المطر علي وحدي.. أذكر أيامي القديمة.. كنت أتمنى لو تُلقي رأسها على كتفي ذات يوم وتبكي، فأمر بيدي على شعرها أواسيها وأقول لها: « أحبك سمر ». كان هذا أقصى أحلامي.. كنا نادراً ما نتكلم بالرغم من أن نظري يظل يلاحق شريطتين بيضاوين، ولكني كنت أخشى أن أجعلها تقبض على قلبي وتعتصره، فأجيبها برصانة، وهكذا بقيت هوة كبيرة بيني وبينها، لا أجرؤ أن أكلمها كثيراً أخشى أن تستخف بي، وتبقى علاقة روحية أعرفها أنا فقط، فتظهر في عينيَّ وتضحك مني، تظن أنني أرسم على وجهي تعابير مسرحية غريبة، وتزداد الهوة بيني وبينها، خصوصاً عندما أكلمها بغرابة كأنني أريد أن أقول لها أنا لست عبداً لكِ وإنما لي شخصية وكرامة. وعندما تجيب عن سؤال في الصف أجد لها خطيئة فتنقلب الأمور إلى عداء حقيقي بيننا.

الأرجوحة تهتز بي، تروح وتجيء، وأوراق الأكاسيا تتساقط علي، أذكر لقاءنا الأخير، وكنت ذاهباً إلى مدرسة أخرى:

- سمر سوف تذكرينني؟

بدأت ملامح وجهها وتعابيرها ترتخي وعيناها تومضان بعذوبة ولم أنتظرها حتى تنطق وقلت:

- أنا لن أنساك يا سمر ».

قطعَتْ ريتا نزيف الذكريات، وقد بدا لها وجهه أكثر اصفراراً، أدنَتْ كرسياً من السرير وجلست تصب له شاياً:

- تبدو شاحباً كالقبور.
- سرتُ طويلاً تحت المطر.
- أين؟
- على ضفة بعيدة بين الأشجار!
- وحدك؟
- وحدي!
- لِمَ؟

- الناس كلهم وحيدون أيتها الفتاة، الفرق بيني وبينهم أنني أدرك ذلك.
- ولكن ما الذي جعلك تبارح الموقد؟
- هل رأيتِ يوماً نهراً في الخريف، وهبوب رياح النهار يطارد أمواجه؟ هل رأيت أوراق الأشجار كيف تطير وتسبح على مياهه الحزينة؟ إن مثل هذا ليبعث أسىً لذيذاً مغرياً في النفس.

جعلَتْ تحدق به بغرابة وشغف.

- لم أفهم.. هل أنت عاشق لتذهب إلى ذلك المكان النائي؟
- لا..
- إذن؟
- الحيرة!
- ممن؟
- من المجهول المتواري وراء ظلال الكون الغامضة!

وقدمت له كأس الشاي بعينين مستفهمتين صافيتين.

- هل أنتِ جديدة؟
- أجل.. من لبنان.
- ما إسمك؟
- ريتا.

وراح يرنو إليها وهي تفتح الستائر فتمتلئ الغرفة بنور الصباح: ها هي من أيقظ قلبي على الفرح ؛ ألم يكن بالإمكان أن ينسانا القدر تحت شجرة الأكاسيا؟ عروسين صغيرين في أرجوحة واحدة لوحت وجهيهما الريح... الأرجوحة تروح وتجيء وأوراق الأكاسيا تنتثر والأرض تزهر.. يا إلهي هل يمكن أن يحب المرء في السابعة من العمر؟.. يا جنة طفولتي.

ولمحَتْ نظراته تنساب عليها فقالت لتنقذه من شروده:

- أنت غامض وحزين!
- ماذا تظنين؟ لماذا نعيش يا ريتا؟

وجلستْ من جديد وقالت بحيرة:

- تقصد لماذا نعيش في روسيا؟
- أقصد لماذا نأكل ونشرب وننام ونتزوج ونموت؟

وازدادت غرابة نظرتها إليه وقالت ببراءة:

- كيف لماذا؟ لكي تظل السماء زرقاء والأرض خضراء والأطفال يلعبون كل يوم بين الأشجار.

– ما هذه الحياة يا ريتا إلا بحر بلا أرصفة، بلا مرافئ، محيط لا معنى له من الفوضى والأحزان والضياع. ونحن نبحر بلا هدف، فريسة للعدم والصُدف، نتوسل إلى البحر فيلطمنا بأمواجه، نخاطب الرياح فتلفحنا بلا رحمة، ومهما كان المرء حكيماً أو ذكياً أو غنياً سيرتجف في صقيعه كأنه في دوار لا نهاية له إلا بالزوال.

فارتعدت كأن معاني جديدة للحقيقة قد تفتحت لها، وازدادت نظراتها فضولاً دون أن تدري كيف تواسيه فنطقت بسذاجة:

- غداً تصبح مهندساً وتتزوج وتُنجب الأولاد.

وطفحت نفسه بالمرارة، أمن أجل يصير مهندساً ويتزوج ويُنجب الأبناء عليه أن يعيش؟ أمن أجل هذا تستحق الحياة العيش؟

– كم عانت هذه الأرض يا ريتا؟ كم من المصلحين، كم من الأنبياء، كم من الفلاسفة مروا عليها، كم من الأفكار جُربت، وما زال أبناؤها يرتعدون من العُري والجوع والكوارث، إلى متى أيتها الآلهة المتعالية على أحزاننا؟ إلى متى؟

وتساءلت عيناها من أنت؟ من أنت؟ وأي وادٍ عميق غارقٍ فيه! لِمَ يهتز العالم تحت قدميك؟

– هل تخلو الحياة من فرح؟

– أدركي أرجوكِ: ما أقصده ما الذي نفعله بهذه الحياة؟ إننا أشبه بطلبة قدموا إلى قاعة الامتحان وجلسوا ينتظرون ولكن أية أسئلة لم تُقدم لهم.

فجعلت تفكر ثم قالت:

– استمع، نحن نملك طاقة أليس كذلك؟ أي قوة ونملك زمناً هو حياتنا ونحن كمهندسين نعلم أن القوة والزمن يعطيان العمل وهذا هو هدف الحياة.

– حسناً ولكن لماذا نحيلهما إلى عمل؟ إن ذلك أشبه برجل غني نزل إلى السوق وجلب مجموعة العمال والعاملات إلى بيته، فما إن وصلوا حتى أقفل عليهم الباب ثم غاب، ولم يدروا ما يفعلون فبدأوا بالأكل والإنجاب منتظرين الغائب الغريب.

فوضعت إبهامها بين شفتيها وقالت:

– أتدري، ربما كانت الحياة كالمعادلة التي جذرها سالب والتي كنا نظن في المرحلة الإعدادية أنه ليس لها حل، وفجأةً في الصف العاشر اكتشفنا أنها تملك حلاً عُقدياً أي تخيلياً، أقول ربما كان للحياة أيضاً حل تخيلي!

فقال بيأس:

– نعم لا يوجد شيء نتشبث به سوى الأساطير حتى لا ننهار، والحقيقة هي ألا نعثر على حقيقة.

وبدت راغبة في الخروج، إن كآبته تغريها، تتسرب إلى قلبها كوقع موسيقى الفالس، ولا تريد الوقوع في هذه الشبكة الرهيبة.

– عليكَ أن تأخذ ثلاث حبات يومياً.. يجب ألا أتأخر عن الحصة الثانية.. إلى اللقاء.

– إلى اللقاء يا ريتا.

وانسابت نظراته عليها وهي تمضي، وعبق الجو بأريج الأكاسيا من جديد، وتراءت له الأرجوحة تهتز فارغة وحيدة تحت الشجرة المزهرة، وهمس: إذا هزأت الطبيعة من أحزاني وسخر مني الناس، ونسيني حتى الله، لا تنسني أنتِ يا حبيبتي. واستلقى من جديد، وسرعان ما غاب في بحر النوم. وكان الروسيان قد جاءا، ولا يذكر سوى أُناس كثيرين كانوا يدخلون ويخرجون يشير إليه بعضهم ويسخرون منه، يقولون « هذا مريض الحب ». والباب كان يُفتح ويصطفق ويُغلق باستمرار وحمّى غريبة توقظه حيناً وترتطم في رأسه من جديد، وكان يهذي بعبارات لا يفهمها أحد غيره، ولا يذكر سوى عربات ملونة زرقاء وحمراء وبعضها مُذهَّب تمر بمخيلته. وفجأةً فتح أحد الحراس باب العربة الأمامية وكان قاسياً شديد الملامح عابساً باحترام وقوة ونزلت « سمر »، كانت على رأسها قبعة كبيرة ذات ريشة بيضاء، وثوبها عريض وطويل متدلٍ حتى الأرض!....

خريف العذاب والنهر الجاري والروابي المفعمة بالأسرار، دعوه ما إن حل المغيب إلى التخلي عن السرير ومطاردة الأوراق الخريفية الراحلة مع الريح. أخذ يسير ونفسه تتوق إلى شيء مثير مجهول. كان يقف وسط الغابة وينظر إلى الأطيار والجنادب وأشجار الشوح ونفسه قلقة مفتشة، كان يجلس على الصخور ويشعر أن عيون الطبيعة تترصده، تقول من هذا الغريب؟ ماذا يريد؟ وسرى الخدر في جسده ما إن لمح النهر الخالد، وسافرت خواطره مع الأمواج الراحلة إلى الغسق، نظر إلى سحب متفرقة وأخرى متجمعة تنبئ بمطر كثير. وقال في نفسه يا للنهر الشريد الضائع بين القفار والسحب، يرحل إلى السماء حيث يودع رسائل الأرض ويعود حاملاً قسمة البشر.

سار والأمواج المخملية تتدفق قربه، رمادية حزينة كالغيم، يغار من الأكمة المحاذية للضفة، فيتسلقها ثم يهبط من الجانب الآخر حتى لا يبتعد عن المياه. كانت تعلو الأكمة أعشاب ذابلة رطبة، قد بللها المطر، كأنها تبكي الربيع، وكان بصره يقع على بعض الأصداف والحصى الملونة فيلتقطها ثم يرمي بها من جديد على الموج. تبع المجرى متسائلاً، مابي؟ مابي أهيم؟ هل أنا سعيد؟ هل أنا حزين؟ والنهر يجري ويجري يومئ إليه بأن يسير ويمضي، ابتعد كثيراً ولاحت له رابية من بعيد ومشى وحين بلغ سفحها هوَتْ عليه الأسئلة المرعبة « من أنا؟.. ولماذا أعيش؟.». ولا شيء غير الصدى، لا شيء غير الحمام الهارب. «من يجدني؟ من يدلني؟» دوى صوته في المدى وشعر برهبة لم تنل منه من قبل، فعاد إلى حديقة المدينة، وانتهى إلى تمثال بوشكين، وتأمل سحر النهر وراءه ثم أخذ يرنو إلى وجه التمثال ويديه وقبعته، ثم خلَّفه وَراءه وحيداً مردداً إحدى قصائده:

لقد ضللنا الطريق فما عسانا فاعلون
الشيطان يجرنا هنا وهناك
ويُديرنا في كل الاتجاهات

سار على الشاطئ مردداً كم قرأت عنك أيها الفولغا قبل أن آتي فاستقبلتني بذراعين مفتوحتين: قرب مياهك ولد نيكراسوف وعاش غوركي وبني أول مسرح

روسي وتقرر مصير الحرب العالمية الثانية... قرب مياهك ابتدأتْ حكايتي وكنتَ تترقرق كبراءة الأطفال وهنا ستنتهي، ولكن كيف أعود الآن بلا أمل بلا كفاح بلا عمل؟.. ووصل إلى كنيسة مهدمة يلفها سياج، فقفز فوقه وأخذ يتأمل كيف تطير حولها الغربان وتقف على قببها المترنحة، وكيف يبدو النهر من نوافذها المتآكلة، وتساءل ما الذي يجعلني أشعر بالهدوء وسط هذا الحطام! لا سبب آخر سوى أن نفسي خرِبَة مشابهة لذلك القرميد المنثور والجدران المهشمة التي تصفر بينها الرياح.

ووطئ مقبرة الكنيسة، كم تجول بين القبور قديماً وحيداً كأنه يبحث عن شيء ما غامض بين الموتى كأنه يريد أن يسألها ما لا تستطيع الأحياء أن تجيب عنه، وكم شعر بالهدوء والطمأنينة، وكأنه في ذلك المعتزل الذي لا يقصده سوى الموتى في منأى من غارات البشر، مع أناس أحياء وديعين لا صلة لهم بهذا العالم، واليوم تحت السماء الكئيبة، والضباب الذي يُلامس القبور وقع بصره على جنازة قادمة من بعيد، جنازة غريبة معظم أفرادها من الزنوج، يخطون بين الدروب، هائمين كأشباح غريبة يلفحها الضباب، مُرتلين ترنيمة حزينة وراء تابوت على الأيدي وكاهن روسي في المقدمة يدنو من القبر، رفع غطاء النعش ليراه الأصدقاء للمرة الأخيرة ثم ووريَ الحفرة، وطفق الجميع ينظرون إلى حفار القبور وهو يُهيل التراب ثم ينسحبون واحداً بعد آخر ويتلاشون في الضباب، فاتجه بخطىً بطيئة من الحفار وقد أخذتْ تمطر برخاوة وسأله:

- أتُراه أجنبياً؟

- نعم، تِمبو.. من أوغندا.

تِمبو!.. أين سمع بهذا الاسم؟ آه.. نعم، صديق ناتاشا، تُرى كيف توفي، تساءل وقد أخذ الآخر يُسرع وهو يسترق النظر إلى السماء.

- هل تعرض لحادث؟

- لأشد الحوادث مرارةً، لقد توفي في المستشفى بالإيدز... بعد سنة من العلاج.

أحسَّ كأن نصلاً يغوصُ في قلبه: رباه.. ناتاشا.. هل هي الأخرى مصابة؟.. ياإلهي..

- هل وصل الإيدز إلى هذه المدينة النائية.
- جلبه معه من إفريقيا.

وتذكر الإسهال الذي انتابه في الصباح، فاعتراه ذعر كاد يشله شلاً، وكما يهوي نجم زاح عن مداره في السديم السحيق للسماء هكذا اندفع خارج المقبرة باتجاه منزل ناتاشا خارجاً عن طوره، وكان المطر يهطل مدرارا والحقول تغرق، لم يكن بيتها بعيداً ولكنه آثر اختصار الطريق فتاه بين المزارع! وامتلأت قدماه بالوحل، حتى إذا وصل إلى جسر كيروف اجتازه كومضة برق إلى الميناء النهري ومنه إلى شارع الكومسمول المحاذي للضفة حيث تراءى له آخر المنازل من بعيد.

مرحى أيها القدر.. مرحى، راح يردد هو ينظر إلى النهر الذي بدا له كعروس حزينة في الدقائق الأخيرة من النهار، وكانت الطيور لا تزال تحلق فوقه تحت المطر، وخيل إليه أنها أصبحت تتبعه، تدور حوله وتسبقه إلى المنزل: يا آلهة الليل يا آلهة المطر يا آلهة البروق والرعد أية فجيعة جديدة تنتظر أمي!؟

وقرع الباب بشدة، كان الظلام قد غمر النهر ولم يبق سوى إيقاع المطر فوق الأمواج. فتوجستْ شراً من الطرقة الأولى، أي عفريت قدمَ إليها في هذه العتمة! أي معتوه! أي سكران! أخذت تفكر وقد لفَّ وجهها حذر وخوف، ثم أطلت من الزجاج فلم تستطع أن تميز سوى شبح غريق في الظلام والمطر، وكان الطرق قد غدا هستيرياً، ثم توقف فجأةً، فارتدت عن النافذة وقبعت وراء الخزانة، ثم استرقت النظر إلى الزجاج فتراءى لها وجه نضال وقد سقط عليه نور الحجرة تفتش عيناه بقلق في أرجائها، ولكن ما به؟ ما عساه يريد؟ أنسي ما سببه لها من ألم، ففتحت ووقفت في الخارج لكي لا تمنحه فرصة للدخول، وسرعان ما أغرق المطر ملابسها، وندَّت عنه نبرة جريحة:

- ناتاشا.. هل حقاً نمتِ مع تِمبو؟

أنظروا ماذا جاء يقول! والجنون في عينيه، والعاصفة فوق دماغه، كل هذا غريب مقلق.

- ما بك.. ماذا تبغي؟

فقال كالمسعور:

– أجيبي نعم أولا فقط!

ما به؟ إننا نبدو في هذه الظلمة كشيطانين من جهنم.

– نعم.. لتذهبا أنت وهو إلى الجحيم.

وخفض عينيه يائساً وقال بصوت بالكاد بدا مسموعاً:

– لقد ذهب هو الآن.. وسنتبعه معاً!

ولم تفهم شيئاً، وكان تبلل ثيابها قد غدا أكثر مما تحتمل، فدخلا وقد بدا وكأنه أخرج من قاع النهر للتو. ووصل تسرب المياه إلى منتصف الحجرة فأغلقا الباب:

– لقد أوقعتَ قلبي بين قدمي.. حسناً ما بك؟

فبدا كأنه يهذي:

– إن مفرزات تِمبو في جوفك كلها الآن.

وخذلته قدماه فجلس مطرقاً على السرير، بينما بدا العصفوران شاحبين صامتين في القفص كأنهما يرتقبان شراً:

– كُف عن الألغاز والهلوسة! ما بك؟ ما الذي في جوفي؟

– الإيدز!

ابيضَّ وجهها كما الثلوج، ووضعت يدها على جبهته التي لا يزال يسح إليها الماء ورفعتها وهي تقول بذهول:

– أي إيدز؟

فقصَّ عليها وقد اختلطت دموعه بمياه المطر، فانهارت هي الأخرى قربه، ولكن صوتها ظل واضحاً قوياً:

– حسناً.. تماسك.. قد لا تكون هذه هي النهاية..

– كيف لا وقد هزني الإسهال منذ الصباح هزاً.. إن احتمال إصابة المرأة مائة في المائة، بينما يطال الرجل ثلاثة وثلاثون فقط ومع ذلك.. رباه.. على الأرجح أنه انتقل إلي.

بقيت ناتاشا صامتة فترة طويلة وهي تدخن، بينما كان ينتحب كطفل أضاع أمه، ثم أخرجت حقيبة من تحت الأريكة وراحت تملؤها بالملابس:

– إنني ذاهبة حالاً إلى موسكو.

– أما أنا.. فهل علي الانتظار بقلق ثلاثة شهور حتى يمكن إجراء التحليل!

– تماسك.. اللعنة.. من أية عجينة أنت؟

لم يدر حقاً نضال ماذا يقول أو يفعل، ودُهش فعلاً وهو يراها قد عادت بسرعة إلى توازنها وها هي تتجه نحو الباب:

– أطبق الباب وراءك عندما تغادر.

وغابت في الظلمة، لقد بقي وحيداً مع طيرين ومصباح خافت، وسرعان ما امتلأت الحجرة بالأشباح، فلاذ هو الآخر بالفرار، إنه الآن كخفاش يخترق الظلمات نحو مبنى الطلبة، نعم فرادارات خفية تُجنبه الآن الارتطام بأشياء الليل، إن سرعته وجنونه جعلا عينيه لا تُبصران أكثر من فوانيس واهنة تضيء رذاذ المطر المحاذي للأعمدة.

فتح الباب كمن أصيب بصرع، وصعد إلى الدور الخامس حيث اقتحم غرفة فيليب دون أن يعبأ بالموجودين الذاهلين، وأزاح الستارة ثم جثا عند قدمي فيليب كجني انشق عنه الحائط:

– استمع.. أريد أن أؤمن!

فقال الآخر بهدوء وهو مستلقٍ:

– هل تعبت من الخطيئة؟

– ومن الصلاح أيضاً.

– لا تظن أن في حياتك الماركسية ثمة صلاح.

فأجاب وهو يقاوم البكاء:

– إنني خائف مذعور كفأر محاصر.

فردد بهدوء وهو لا يزال مستلقياً:

– ثيابك منقوعة، وجسدك مبلل منهك كالبارحة.. أين تذهب كل يوم؟

– من أخبرك؟

– الروسيان جاءا إلي في الليل وأعلماني، فهبطنا إليك ولم نشأ إيقاظك.. ولكن ما بك؟

- إننـي مصـاب بالإيـدز... لقـد مـات تِمبـو... وقـد... ولكـن لا تقـل لأحـد... عندما.....

لم يكن قد تمالك نفسه بعد، فروى لـه التفاصيل بصوت مرتجف، ففوجئ فيليب واتسعت دائرة عينيه، ونهض عن الوسادة مسنداً ظهره إلى الجدار:

- إهدأ.. لا أعتقد أنك مهدد باحتمال يفوق الـ ٣٣ %، ذلك إذا كانت هي قد أصيبت فعلاً.

- ولكنني أصبت صباحاً بإسهال مفاجئ لم أعهده.

- ومـع ذلـك يتكتمـون عـن العـدد الحقيقـي للإصـابات، يقولـون لـدينا عشـرون مصاباً فقط في روسيا كلها، ومعظمهم في موسكو حيث ينتشر الغربيون بكثرة، ولكن لابأس تمهل قد ينقطع الإسهال غداً، وبعد ثلاثة شهور تذهب للتحليل.. سامحنا يا رب.

- بالطبع سوف ينقطع إن كنت مصاباً، ولن يعاود قبل ستة شهور.

- استمع أليس من المعقول أن سبب الإسهال البرد الذي تعرضت له البارحة؟

عندها فقط تمكن نضال من السيطرة على نفسه، أجل.. من المحتمل جداً وهذا ما فكرت به منذ الصباح.. كيف فقدت رشدي؟ ردد في نفسه، ثم همَّ فجأةً بالخروج:

- إلى أين؟
- حسناً.. يجب أن أبدل ملابسي.
- انتظر ألم تقرر الإيمان؟
- بمن؟

ردد الكلمة الأخيرة ساهماً ثم أغلق الستارة، ولكن ما إن غدا وحده حتى عاد إليه الهذيان: من المؤكد أن ناتاشا مصابة، وهذا يعني أن احتمال إصابتي هو الثلث، ومن يدري أن الإسهال ليس من الإيدز! تُرى هل ناتاشا مصابة، ولكن لم يُلم بي أي تقيؤ...؟

------- ٢ -----------------------------------

غسق اليوم التالي توغل النيتشوي مراد عميقاً بين البساتين، كأنه وداع أخير قبل مجيء الشتاء الرهيب. كان لا يزال مخموراً تجلب له الغبطة كل هبة ريح أو ورقة خريف أو زقزقة طير... ما أجمل أن تسير في يوم غائم خريفي وحيداً إلا من التلال والسحب والأشجار، وكم من الأسى يخامر القلب وأنت ترنو إلى النور يتلاشى ويضيع كما ستتبدد الحياة ذات يوم وتزول، سار تائهاً غريباً شريداً، ضائعاً بين أوراق الشجر تقوده قدماه إلى أماكن منسية مهجورة حيث يتجول مكسورو الأرواح وحيدين باحثين عن أحد يحبهم. كان يرسم تارةً وتلاحق قدماه هبوب الريح تارة أخرى، فيطل على مروج مترامية وقفار. صوت صفير غريب مقلق كشبابة راعي بدأ يتناهى إلى أذنه من بين الأشجار. مضت فترة لا يستطيع تمييز من أين الصوت يأتي، وبدا له من بعيد، مزار على رابية، عليه صورة العذراء وصليب، مزار أسطواني محمول على أعمدة أثرية على قُبته دوائر معدنية متشابكة وأداة شبيهة بملعقة متداخلة في التشكيلة الغريبة للمعادن، تصدم الريح تجويف الملعقة فتُحدث لحناً متقطعاً ساحراً.

تصلَّبتْ قدماه عند القنطرة، ولم يعد يستطيع مقاومتها أَلِفَتْ أُذناه اللحن المتكرر بسرعة، أحسَّ كأنه أصبح عموداً من رخام شُدَّ بجوار الأعمدة، كأن المعزوفة تريد أن تكلم روحه شيئاً، كانت تخبئ في كل إيقاع من صفيرها أخبار أيام نائية وأشجاناً وأحلام أناس قدامى سكنوا ذلك الوادي. شعر برجفة غريبة، أحسَ أن قلبه لن يستطيع الصمود أكثر أمام النشوة الروحية العميقة التي تسربت إليه من مشاهد الطبيعة، ومعزوفة الأيام التي تدق كأنها لحن القدر على الرابية. رباه أتُراه سيُغمى علي من النشوة... تدمدم نفسه في سكينة ويهبط عائداً بحذر يُمسك بجذوع الأشجار، لا شيء يعيه سوى لحن نبوي غامض يخاطب قلبه كأنه صوت الأرض تبكي شاعراً. سار تطارده المعزوفة، تُسري الخدر في جسده فينظر بسكينة إلى الأوراق الصفراء المتطايرة في هدوء المزار الحزين. صوت البوق يُصدر نغمات نائحة، يبعث أنيناً أليماً ينتثر في الجو، آه لو أستطيع أن أهجر كل شيء وأرعى خرافاً على جبل، ردد

وهو يرنو إلى الأكمة الخضراء الشاسعة تحت عتمة الغروب، كان الليل قد خيم، والريح غدت باردة، عندما لمح شبح رجل في الظلال، رباه.. هذا فيليب:

- ألا تزال تطوف التلال والمرسم في يديك؟

فأجاب مصافحاً:

- إذا تخليتُ عن شبابة الفن لا يبقى من الحياة إلا سمُّها[١]

وتقدما سويةً، وكان يعلم أن فيليب لابد أنه يقصد المزار ليصلي.

وقال مراد:

- الشتاء يقترب وممر الرياح سيصبح صقيعاً قارساً.

- ومع ذلك تظل وحيداً لا شفاء لك!

- إذا كنت وحدك فأنت كلك ملك نفسك، أما إذا كان معك رفيق فأنت نصف نفسك.[٢]

- لماذا لم تدخل معهد الرسم؟

- نعم، كنت أتمنى أن أدرس الرسم دراسة جدية، فأتعلم التشريح وفن المنظور واستخدام الضوء والظلال وكيمياء الألوان والزيوت.

- تنتظرك حياة قاسية في الوطن.

- لكي تصبح فناناً عظيماً يجب أن توجه دفتك نحو الهاوية وقلبك يطفح بالفرح!.. ثم افرض أن معي الآن ملايين ما الذي سأفعله بها؟ جُلّ ما سأقوم به هو أن أدفنها في مكان ما ثم أعود إلى مرسمي. على امتداد الوطن العربي ملايين الأغنياء والتجار واللصوص ولكنَّ واحداً فقط حصل على جائزة نوبل. إنني بحاجة إلى هذه الحياة القاسية والمعاناة بالذات وإلا فأي شيء سأصوره؟ لن أرسم سوى الأشباح!

- ستفاجئك أسرتك بأعباء حقيقية، وبهموم ليست على البال، لن يكون الوضع أبداً كما هو الآن.

---

١ - شارلوت برونتي .

٢ - ليوناردو دافنشي .

– قال برناردشو سيتعين على الفنان الحقيقي أن يهجر زوجته وأولاده وأن يترك أمه تتسول في سن السبعين وسيكون ذلك أفضل له من أن يعمل في شيء غير فنه.

– مرات أحبك.. أشعر أن فيك شيئاً ما يشبهني، كاستعدادك لوهب نفسك لأجل ما تعتقده سامياً. تأمل كم قول برناردشو ذاك يشابه قول المسيح: من أحب أباً له أو أخاً أو زوجة أكثر مما أحبّني فهو لا يستحقني. وتأمل كم أنا وحيد مثلك في هذا الليل.

وأردف متوقفاً عند بقايا الضوء الذي يلقيه فانوس المزار:

– حسناً.. انتظرني وسنعود سوية.. يطيب لي أن أصلي في هذا المزار... لقد علا قلبي اضطراب عظيم البارحة ولن يهدأ إلا هنا.

وصعد حتى وصل إلى القنطرة وهناك ركع، وظل لحن المزار يرتجف في الليل كأن ملاكنا فاتناً يعزف على الرابية صفيراً حزيناً، وعاد بوجه أكثر إشراقاً، وسارا تحت الأشجار في العتمة وحيدين إلا من صفير الريح وخشخشة أوراق الخريف تحت أقدامهما.

وقال مراد:

– لننكفئ إلى الكوخ، هل تشرب قليلاً من الكفاس [١].

– على أن لا أتأخر كثيراً.

– ما الأخبار الجديدة؟

– لا شيء، عدا الصحفي الفرنسي الذي سأل غورباتشوف بعد أن أفرج عن ١٢٠ معتقلاً سياسياً: متى تنوي الإفراج عن الأربعة ملايين الآخرين؟ فأجابه لم أكن أظن أنك شديد الغباء إلى هذا الحد! نحن لسنا في أيام ستالين.. وأردف فيليب:

– يجري الآن صب اللعنات على ستالين، يتهمونه بإعدام قُواد البلاشفة الأفذاذ بوخارين وكيروف وزينوفيف، لقد كتبَتْ البرافدا منذ أسبوع أن ما أعدمه ستالين فاق ما فعله القياصرة منذ سبعة قرون. ولكن كل ذلك ليس إلا لتمرير إصلاحات تهز العالم هزاً.

---

[١] – مشروب روسي شعبي يُصنع من الخميرة .

– نعم ولكنني قصدت الأمر الذي ملأ قلبك بالاضطراب فجاء بك في هذا الليل إلى المزار.

– حسناً في الكوخ.. في الكوخ.. إنني أرتجف من الريح.

كان الكوخ مؤلفاً من أغصان الأشجار ولحائها، صنعه رجل روسي كان يرتاده عادةً أيام الصيف، ثم باعه لمراد مقابل خمس لوحات، الذي أدخل عليه تحسينات كثيرة فأحكم سد ثغرات السقف حتى لا ينفذ المطر وابتاع جهاز تدفئة وآخر للإنارة وغطى الجدران بلوحاته، وكان فيليب يلاحظ سنة بعد سنة أنه يغدو مريحاً أكثر فأكثر، ولكن ظل سقفه لا يصمد لتوضع الجليد، وظلّت جدرانه لا تمنع البرد القارس.

وبينما أخذ مراد يصب كأسين من الكفاس، راح فيليب يتأمل الرسومات واحدة واحدة، حتى ثبتت عيناه على لوحة كُتب أسفلها « الأبدية التي على هذه الأرض »، ثم جلس على السرير وشرع يحدق فيها طويلاً والآخر صامت، فقد اعتاد أن يبقى كذلك عندما يأتي أحدهم ليشتري إحدى رسوماته أو يتفرج، لم يكن في الخارج شيء غير وحشة الليل ونباح الكلاب وعويل الريح، لا أحد ينتظر وصوله لا أحباء يطرقون الباب، لا أصوات، لا أصدقاء، ولكن مراداً يجيب أن حنان الطبيعة يغمره، وتدفق النهر يرويه، وأشجار الشوح أكثر من أصدقاء، حين يُسأل من زواره النادرين.

وأطرق فيليب إلى الأرض، وقال بيأس:

– إن نضالاً في مأزق، لقد أودت به ناتاشا ألكسندروفنا إلى قعر جهنم. قل لقد أودى به الزنى إلى هناك... لطالما ردَّدت عليكم أن الموت يأتي كلص في الليل.[1]

لقد أسرَّ له بكل شيء.. بكل الحكاية.. منذ تِمبو حتى نضال الذي كاد يتشقق صدره من الألم والأسى والضياع، وكان مراد يُنصت إليه جامداً غريباً دون أن يقاطعه مرةً واحدة، وعندما انتهى فتح الباب بهدوء ثم خرج وضاع في الظلمة.. وجَمدَ فيليب مكانه من الرعب وندَّ عنه صوت « إلى أين؟ »، وتبعه وهو ينادي « مراد.... مراد.. » ولكنه لم يواجه سوى أشباح الأشجار المتلاطمة، فأخذ يدور حول الكوخ صائحاً « أنت هنا.. يا مراد؟.. » فلم تُجبه سوى الرياح، ووقف حائراً في ذلك المدى المعتم تلطم وجهه الأوراق الصفراء المتناثرة، ثم صعد تلة مجاورة وأخذ ينظر

---

[1] – الكتاب المقدس.

باتجاه ضوء المزار بلا فائدة، فانحدر عائداً إلى الكوخ وجلب المصباح وسار باتجاه النهر، والريح الجليدية تصفع وجهه صفعاً فتسيل الدموع من حدقتيه. فعثر عليه وحيداً على الضفة ويداه في جيوبه فركض خلفه ونظر إليه برعب:

- مراد.. هل بك شيء؟
- لا.. لا شيء، لِنَعُدْ.

وعادا، ولم يفه فيليب طيلة الطريق بشيء، وفجأة قال مراد برصانة:

- أتعلم أين منزل ناتاشا ألكسندرفنا؟ إنه أمامنا الآن مباشرةً على الضفة الثانية، لقد نمتُ معها أنا أيضاً يا فيليب منذ بضعة أيام.

وانعقد لسان فيليب، ولم يفه بشيء، لقد جلَّد أعضاءه الذهول والمفاجأة والبرد، وحول الموقد قال له:

- ألهذا أنت حزين؟ إن احتمال إصابتك الثلث فقط.. هذا إذا كانت فعلاً مصابة...

فقاطعه برباطة جأش:

- لست حزيناً! هل تراني حزيناً! إن احتمال موتي صفر بالمائة!
- كيف؟
- لأن الإنسان لا يموت يا فيليب!!!

ولم يبدو أن إمارة في وجه فيليب قد تبدلت، فقد ظنه قد بدأ يهذي وأطرق من جديد صامتاً، ولكن مراد أكمل:

- لقد قال نيتشه: سأعود بعودة هذه الشمس وهذه الأرض، ومعي هذا النسر وهذا الأفعوان، سأعود لا لحياة جديدة ولا لحياة أفضل ولا لأخرى مشابهة بل إنني سأعود أبداً إلى هذه الحياة بعينها إجمالاً وتفصيلاً فأقول أيضاً بعودة جميع الأشياء تكراراً. وأبداً.

- ماذا يعني هذا؟

- العَود الأزلي.. وهو ليس غريباً يا فيليب بما أن مدى القوى الكونية متناه ومحدود، أي أن عدد مواقع هذه القوة وتغيراتها وتركيباتها محدود بدوره وإن كان هائلاً، وبما أن الزمان لا متناهٍ فتستنفد الإمكانات التي تتاح لهذه القوة المحدودة،

وبهذا تأتي حالة تُماثل تماماً حالة أخرى تكررت من قبل، وعندئذٍ تتلو عنها كل الحوادث كما وقعت من قبل تماماً ويكون الكون قد أتم دورة من دوراته، وتظل هذه الدورات تتكرر إلى الأبد خلال الزمان اللامتناهي كل منها مماثلة للأخرى في كل صغيرة وكبيرة.. وهكذا لماذا أخشى الموت طالما يعقب كل موت حياة وكل شيء مر معي منذ كنت صغيراً إلى الآن سيعود من جديد؟ صحيح أن دورة الزمان ربما تكون عدة مليارات من السنين ولكن نيتشه يؤكد أنها ليست أكثر من ومضة البرق ما دام الوعي الذي يقيس الزمن مختفياً خلالها، ومعنى ذلك أن الميلاد يعقب الممات مباشرةً، مثل المريض الذي يستيقظ بعد خدر العملية لا يعرف ولا يهمه كم استغرقَتْ، إنه فرح الآن بالحياة من جديد، إن هذا ما يدعى بالعود الأزلي. وهو يُزيل خشية الإنسان من الموت ويبشره بعودة طفولته.. آه ما أروع أن يستيقظ المرء يا فيليب ذات يوم فيجد نفسه في بلدته، فتىً مرحاً في الخامسة عشرة من عمره، الشمس تُقَبِلْ خصلات شعره، والريح تتماوج عند خديه، يمشي في الطرق ويُصفر لحناً دافئاً لذيذاً، والفتيات يتغامزن وهن ينظرن إليه، ولا يعبأ بهن، ففي قلبه فتاة واحدة فقط، وفي عينيه ظلال وفية غامضة، وعلى شفتيه حنين صفير عذب، الكون شاسع وكبير أمام عينيه، والشمس مشرقة إلى الأبد، لأن قلبه يشعر بالخلود. كنت أشعر بالأبدية على هذه الأرض منذ كنت صغيراً يا فيليب، أبدية من الضفائر والفتيات الخجولات، حب نوراني.. أمطار من عطر.. أسرار وغيرة وليل، كانت مراهقتي معزوفة غير منتهية من السعادة، والأيام تمر وراء النوافذ بلا هم ولا حزن!

– هل نيتشه من أتى بهذه الفرضية؟

– لقد أحسَّ بها انكسمندر والفيثاغوريون وهرقليطس وأنبادقليس وابن خلدون ولا أحد يعلم كيف كان الأخير يجمع بين الإيمان والعود الأزلي، ولكن هناك شواهد تقطع بأن الفيثاغوريين رأوا الزمان يعود كما سار من قبل فتتكرر كل حوادث العالم مثلما تتكرر فصول السنة بعد أن تتم دورتها، ولكن نيتشه الوحيد الذي أعطى لهذا برهاناً علمياً. والواقع أنه كان في ذهن نيتشه مشروع أضخم، يرمي إلى أن يكرس عشر سنوات من حياته لدراسة العلوم الطبيعية، لا لشيء إلا ليجعل فكرة العَود الأزلي يقيناً، ولكن موجة الجنون التي ضربته آخر سنين حياته منعته من تحقيق

ذلك، ومع هذا فقد عمل جاهداً على أن يجد لفكرته دعامة علمية، فلا تعود مجرد فرض ميتافيزيقي كما كانت عند اليونان.

– هل جُنَّ نيتشه؟

– نعم ظل عشر سنوات في جنون مطبق قبل أن يوارى الثرى!

– ما الذي جعله يجن؟

وطفر الأسى من عينيه وفشل في أن يخفي ذلك فأطرق إلى الأرض:

– نفس الكارثة تقريباً التي حلَّت بي!.. لقد أصيب بالسفلس.

واشتد عواء الريح في الخارج حتى بدت كأنها ستقتلع الكوخ، واقتربا أكثر من الموقد، وأردف بعد برهة:

– صحيح أن نقص المناعة سيجعل الأمراض تفتك بي فتكاً، ولكنني سأتحدى ما يمكن تحديه، وسترى بنفسك مقدار كبريائي، سأشعل من المقاومة والحيوية ما مقداره رهبة المرض، وسيُحدث ذلك توتراً داخلياً قوياً في نفسي إلى درجة تجعلني قادراً على رسم أفضل لوحاتي، فأرتعش هناءً وسعادة لم أعرفهما من قبل.

وأردف:

– ومع ذلك كم من المتاعب سبب لي الجنس، لقد أُصبت خمس مرات بالسيلان، وأُجريت لي عمليتان جراحيتان لاستئصال دُمَّل قانٍ وأخرى لانحراف وتيرة. لقد ضاجعت في السنوات الأولى لوصولي ما يقرب الثلاثين إمرأة، بينما لم أعرف في سورية إمرأة واحدة.

– رباه.. من يتأمل هذا كيف يقول أنك فنان لم تذبل حياته الروحية أو يَمُتْ فيه الحلم؟

– عندما وصلت لم أكن أعرف النيتشوية جيداً بعد، وهكذا أقبلت على الرسم وأنا لا أزال أرتعد من الأفكار النفعية التي تسود الوطن العربي هذه الأيام، والتي تشبه تلك التي كانت رائجة في روسيا في القرن الماضي عندما كانوا يقولون «زوج من الأحذية أفضل من بوشكين»، فيندر أن تجد الآن أحداً بيده كتاب أو يترنم بقصيدة أو تشده لوحة أو ينتشي أمام مشهد من مشاهد الطبيعة، إن الجميع الآن تشدهم النعال أكثر من الحب أو الفن أو العلوم، فكنت أتردى في مستنقع مفزع من

الكآبة واليأس، وأرى هاوية من الفقر والأوهام والأباطيل فاغرة فاها أمامي، وكان عزائي الوحيد قول نيتشه: ما قيمتك أنت يا زارا؟ قل كلمتكَ ثم انحطم.. ولكن بعد مثل هذه العاصفة من المشاعر كانت تجتاحني رغبة رهيبة في الإقبال على البغايا، وبعد أن أنتهي تنتابني راحة وغبطة كتلك التي يشعر بها المريض بالقتل عندما يسفح دماً. نعم كان الجسد يشدني من يد والروح من اليد الأخرى. ومع ذلك لم أكن مذعوراً من أن تذبل حياتي الروحية فقد كنت أتذكر كلام نيتشه: لقد كانت الكلاب المفترسة تسكن دهاليزك من قبل، فها هي الآن أطيار مغردة، لقد كان لك فيما مضى شهوات كنت تحسبها شروراً، أما الآن فليس فيك إلا الفضائل، وقد نشأت هذه الفضائل من شهواتك نفسها، لأنك وضعت في هذه الشهوات أسمى مقاصدك فتحولت فيك إلى فضائل وملذات هي منك ولك. أقول لم أكن خائفاً من أن تذبل حياتي الروحية لأنني كنت أؤمن بعكسك أن تحسين الإنسان لا يتحقق بإضعاف غرائزه وكبتها واستئصالها بل بالتسامي بها، لأن الإنسان دون بواعث لا يستطيع أن يفعل شيئاً خيِّراً أو يُبدع شيئاً جميلاً. بينما ببواعثه القوية يمكن أن يكون شريراً إذا لم يتعلم أن يتسامى بها فقط، ولكنه إذا حقق السيطرة على نفسه يمكن أن يكون عظيماً، ولعل هذا ما عناه نيتشه بقوله إن قدرات الإنسان المرعبة والتي تُعد غير إنسانية يمكن أن تكون أرضاً خصبة تنشأ منها وحدها كل الإنسانية. وبالتالي من يملك بواعث أقوى يمكن أن يصبح أعظم . إذا تسامى بها . من الذي بواعثه بالأساس ضعيفة أو باردة، وهذا ما نجحت في تحقيقه عاماً بعد عام، فحولت الجسد الفاني إلى روح ورسوم ولهب، ولكن فجأةً....

– ولكن فجأةً ماذا؟

– لقد جرى معي مثلما حدث مع عذراء السوب، القطة التي تحولت إلى امرأة، وجلست بحشمة في نهاية المائدة، إلى أن مر فأر أمامها فانقضت عليه... هكذا وقعت في أحضان ناتاشا.

لقد أغفت طيور البرد وحشرات الغابة وكلاب الليل، النهر وحده ظل ساهراً يترقرق من بعيد، النهر وشابان عجيبان في كوخ غريب. ونظر فيليب إلى ساعته

وقال يبدو أنني سأبيت الليلة على هذه الأريكة، وازداد تسرب الريح من شقوق الجدران، فزادا من توهج الموقد وتساءل فيليب مندهشاً:

– ثلاثون!.. ولكن لا يوجد في روسيا الاشتراكية أي مبغى!

– توجد أماكن سرية لا تعرفها أنت، ثم إن معظمهن لم يكنَّ من البغايا، بل من الشوارع ومن المعهد ومن النساء اللواتي يرتدن صالة الديسكو كثيراً، والمراقص التي تقع في ساحة الكوسموس حيث يتجمعن في منتصف الليل عند مواقف الترامات قرب حديقة النهر.. ولكن كنت أتهيب من دخول حفلات الرقص تلك في البداية، كنت أقول لنفسي ما أنا إلا من العالم الثالث فكيف لي أن أُجاري هؤلاء الأوروبيين ذوي القامات الممشوقة والعيون الزرق والحركات الخفيفة، ويوماً بعد يوم بدأت أكتشف حظوة الأجنبي في نفوسهن، ليس لأنه غني فقط بفضل تجارته بالبضائع الأجنبية وتصريف الدولارات في السوق السوداء وإنما لطموح معظمهن في الزواج ولو من زنجي والرحيل خارج الستار الحديدي. وكان اليوم الأول الذي شعرت فيه بذلك أول المصائب التي سببها لي الجنس، لقد خلَّف لي انحراف وتيرة لا يزال موجوداً حتى الآن.

– انحراف وتيرة!؟

– لقد كنت أجلس وحيداً إلى منضدة في المطعم الذي يجانب تمثال ليرمنتوف غير بعيد عن حديقة المدينة، وكنت أرتدي بدلة جديدة قد وصلتني للتو، أظهر فيه واضحاً أنني أجنبي، وفجأة دخل ضابطان بملابس عسكرية ومعهما فتاة مدهشة سريعة الانفعال تأملتها برهة حالما جلست، نعم بدأتْ تطيل التحديق بي بطريقة جعلتني أنا نفسي مرتبكاً أفكر بمغادرة المطعم، لقد كانت عيناها متمرنتين مغريتين تجعلان شياطينك السبعة تستيقظ فجأةً، وتساءلتُ هل علي أن أراعي شعور الرجلين أم استسلم لتلك النشوة الغريبة التي تلقيها علي نظراتها المترعة بالعذوبة والمجون. وطلب الضابطان زجاجة فودكا وحساء السمك ودجاجة محمرة وكانا يلوحان سعيدين برفقتها زادهما فرحاً شعورها فجأةً بالمرح دون أن يلحظا أن ذلك كان بسببي، وبينما شرعا يلتهمان الطعام أخذت عيناها تمتلئان بالابتسامات، فأخذت أُلقي عليها نظرات عميقة عربية لم تألفها بعد فازدادت اشتعالاً، وفجأةً رفعتْ كأس الفودكا نحوي كأنها

تقول في صحتك وعلى شفتيها ابتسامة فأومأت إليها بإعجاب وقد لحظ الروسيان ذلك وجعلا يستخفان لا مبالين ولكن ما إن مرت عشر دقائق أخرى حتى غدت نظراتهما إلي مليئة بالحقد فارتديت معطفي وغادرت المطعم، ولا أعرف ماذا دار بينهم بعد ذلك إذ وجدتهما ورائي وحيدين وكنت انتظر الترام وكان الليل قد انتصف، فأمسك بي كل منهما من يد وقالا:

- تفضل معنا أنت معتقل؟

- إلى أين؟

- تفضل.. تفضل.

وسحباني إلى غرفة الهاتف وأخذ أحدهما يدير القرص بينما حاصرني الآخر عند الباب المفتوح، وهتف الأول:

- ألو.. أهذا المقسم ٧١٢ أبِ خِ إس[١]؟

كان الليل هادئاً وكان صوت السماعة يتناهى إلى أذني بإجابة خافتة:

- نعم.. من المتكلم.. من تريد؟

- أنا اللوتينان [٢]، سرغي ميخايلوفتش سوكوف، لقد قبضت على أجنبي يعاكس الروسيات في الشارع!

- من أين؟

فقال لي أعطني جوازك، ثم قرأ:

- من سورية.

- حسناً.. ماذا فعل؟

- يعاكس الروسيات في الشوارع.

- أطلقه.

- يعاكس الروسيات بعد منتصف الليل.

- حسناً.. أطلقه.

---

١ - المخابرات السوفيتية الداخلية .

٢ - ملازم أول .

وأغلق السماعة، فندت لعنة عن الضابط، وكز على أسنانه قائلاً « إلى الشيطان » وأعاد السماعة، وأمسكا بيديَّ من جديد وجراني مسعورين إلى الحديقة المعتمة فقلت « ما بالكما.. ماذا فعلت » فلطماني على فمي، ثم بدآ يضرباني ضرباً مبرحاً ويرفساني حتى تورمت شفتاي وازرقَّ وجهي، إنني لا أتذكر سوى أنهما كانا من الوحشية بحيث ظننت أن تلك الليلة هي الأخيرة في حياتي، ثم تركاني مرمياً تحت تمثال ليرمنتوف حتى الصباح حيث نقلني المارة إلى سيارة الإسعاف وقد انحرفت إحدى عظام أنفي إلى الداخل.

– هذا شائع جداً، ليس غريباً.

– نعم فكثيراً ما يقدمون على ضرب الأجانب لمثل هذه الأسباب خصوصاً إذا كانوا شربوا، مثلاً تجد شاباً روسياً وقد أخذ يراقص فتاة في بار ويلاطفها ويقرعان الأقداح سوية، بين مجموعة من الأصدقاء، وفجأةً يظهر أجنبي في حلقة الرقص ويغرقها بالوعود فتمضي معه سريعاً حال انتهاء الرقصة، أنت تذكر ما جرى مع عزت المصري؟

– نعم، نعم، ولكن هل هؤلاء مصابات بالسيلان أيضاً؟

– لقد جائني السيلان من المبغى فقط.

– لماذا لم تستعمل الكبود؟

– من كان يفكر بالواقي يومها، الإيدز لم يكن معروفاً في تلك الأيام، كما أن الشفاء من السيلان كان أسرع من الشفاء من الرشح، والطبابة مجانية، ولكن أكثر ما أحرجني كان الدُمَّل القاني...

– حسناً.. أكمل، أكمل، ربما ذلك يخفف عنك.

– كنت أنا من بين هؤلاء المخاتلين الأجانب الذين وصفتهم لك، تقودني قدماي إلى ساحة الكوسموس وحيداً وتُعيدني مع امرأة وعدتها بزجاجة خمر أجنبية وهدية ومستقبل من الحب قد يصل بنا إلى باريس نفسها. وكانت المرأة الأولى قد عثرتُ عليها ثملى من الخمر، قرب حديقة النهر، وتبعتها مثل ذئب مفترس يتضور جوعاً. ولكن بعدها لم يعد يروق لي سوى أجمل النساء، معرضاً نفسي لأشد الأخطار بعد أن تكون قد لفتت انتباه المرقص كله، ثم صرت آتي بعد أن ينتهي الحفل، فأنتظر

في أمكنة ارتداء المعاطف فأتعرف على صاحبة أجمل جسد، الذي لم يكن يهمني غيره، وفي مرحلة متقدمة صرت لا أغشى تلك الأماكن على الإطلاق، بل آتي في الثانية عشرة تماماً، موعد إقفال المراقص والمسرح وصالة الديسكو، فأنتظر في مواقف الترامات، وهناك أفعل ما بوسعي لأقودها إلى الفراش بسرعة قبل أن تلف بي السبع لفات. وكان اليوم التالي أشق، إذ كان علي أن أتنزه معها طويلاً، وأجاملها ساعات، وكنت أفكر: من هذا المخلوق الذي بقربي يمشي معي؟ أنا لم أعتد... إنني أفكر لوحدي، أفرح لوحدي،.. كيف أكمله؟ كيف أجامله؟ وكُنَّ يقضين معي أسبوعاً أو اثنين أو شهراً ثم يتركنني، لأن الآمال التي فكرن بها ما يلبثن أن يكتشفن سرابها، وحتى أوقات فراغي للرسم والدراسة وليست لهن، وأنه غير مطلوب منهن سوى ممارسة الجنس مقابل بعض الهدايا، والروسية كأية إمرأة تمقت مثل هذا، إذ أنها إنسانة تبحث عن الحب وليست دجاجة يأكلها الرجال عندما يجوعون، وهكذا كنت أجد نفسي دائماً وحيداً من جديد، كان مفهوم الحب بالنسبة لي مختلفاً جداً.. فلم أستطع أبداً أن أحب فتاة روسية.

وظللت أقصد ساحة الكوسموس أفتش عن مغامرة جديدة تهز قلبي بقوة.. الترامات تكنس المدينة من البقية الباقية من الناس، وعيناي تبحثان عن عاهرة تتسكع في الليل، عن فتاة شريدة في الظلمة. ويمضي بي الترام كل مرة مع فتاة جديدة ويمر في الليل بين أضواء المدينة.. لم أعد أشعر أنها أكثر من كلب ميت قربي.. من تُراها تكون؟ وماذا تفكر الآن؟ أليست أكثر عهراً مني، ميتة الروح تنتظر الهروب من الضباب والصقيع؟ كنت أتساءل، وتنظر إلي في السرير بعينين حزينتين وسرعان ما تغط في النوم، تنقلب بجانبي إلى مجرد كيس من لحم، وأغرق في لجة الأفكار.

وذات يوم سمعتُ تأوهات غريبة تتردد من الحديقة المعتمة، فتركت موقف الترام وانحشرت في الظلمة، وكان الصوت يزداد وضوحاً كلما تقدمت باتجاه فوانيس النهر، حتى بدت لي فجأةً أشباح وظلال تشبه دبين يتعاركان، ثم وقفت مذهولاً أمام امرأتين ترتديان معطفين ثقيلين تكاد تفتك إحداهما بالأخرى، ظللت مدة لا أدري ما أفعل أمام هذا المشهد الغريب، ثم وجدت نفسي عفوياً مضطراً لأن أقف حائلاً عندما ندت

صرخة عن الأخرى، ودُهشتُ لأنها ليست إلا فتاة الضابطين، وهتفَتْ « لا تتركني أرجوك » بينما صرخَتْ الثانية « لا تتدخل.. ابتعد » فقلت:

- إذن سأحضر الشرطة.
- إذهب إلى الجحيم.

وكانت هائجة تبدو بمعطفها البني الثخين كدب حقيقي، ولم نتمكن من إيقافها إلا بعد أن ألقت وابلاً من الشتائم واختتمتْ « عساك تكررين ذلك مرة أخرى، عندها سيكون حتفكِ » والتقطتْ شالها من الأرض ومضت، وقالت الأخرى:

- إبق.. لابد أنها مختبئة في مكان ما.

وسرحَتْ أبصارنا في العتمة، ولكننا لم نلمح سوى المياه الجارية تحت الفوانيس وقالت:

- ها قد التقينا من جديد، هل أنت مسرور؟
- ولكن ما الذي حدث بحق الشيطان؟
- إن زوجها يلاحقني وتظن أنني السبب.

وسرنا تحت الأشجار، وألقينا أنفسنا على الأراجيح، وجعلنا نضحك كالأطفال، كنا وحيدين، وكانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة، وقالت:

- هاقد التقينا من جديد، هل أنت مسرور؟

ولكن الحقيقة أننا لم نلتق، وظلت تروح وتجيء في الأرجوحة ضاحكة كأنها على وشك الجنون، وظلت ضحكاتها تتردد في أرجاء الحديقة، حتى هدَّها التعب فأرخت نفسها عليَّ، ولففتُ ذراعي حولها، وسلكنا طريقاً معتماً طويلاً حتى وصلنا إلى حجرتها، كانت الترامات قد توقفتْ، ولم نر أي مار في الشوارع. وألقت بنفسها على السرير وقالت هيا ضمني بكل ما تستطيع من قوة، ألست سعيداً أننا التقينا من جديد، لقد أنقذتني الليلة، فهيا قبلني وداعب نهديَّ. ولكن الحقيقة أننا لم نلتق، وأخذت تنزع ثيابها وفعلتُ مثلها وقد سحرني جسدها الأبيض الحار، وفجأةً ندَّت عنها صرخة رهيبة: « يا إلهي.. أنتَ مصاب بالسفلس ». كان هناك دُمَّل أحمر قانٍ، هناك بالذات، ورُوعْتُ أنا أيضاً، وأخذَتْ تصرخ « هيا أخرج من هنا » « هيا أخرج.. لا تلمسني » وأمسكت زجاجة من حمض كلور الماء قائلةً « هيا غادر..

قبل أن أحرق جسدك ». لقد أصبحتْ فظيعة ورمتْ لي الثياب خارج الباب وأغلقَتْ ورائي. وارتديت ملابسي وسرت وحيداً في الطرقات حتى انبلج الفجر: أين اختفت العاطفة فجأةً؟ كيف تبخرت كل رقة بطرفة عين؟ ووجدت نفسي في الصباح على باب العيادة، حيث أجريت تحليلاً للدم ظهرت نتيجته بعد ثلاثة أيام، خال من أي زُهري، ولكن علي إجراء عملية لاستئصال الدُمَّل ذاك، لقد كان مجرد ورم.

ورد فيليب:

– يا إلهي عملية هناك.. في ذلك المكان بالذات.

– وبمسدس كهربائي، ودون تخدير، والأكثر إحراجاً أنهم أخبروا عميد الكلية الذي أرسل في طلبي، ولوَّح بإبهامه في وجهي كما يفعل الروس عادةً وحذرني من الساقطات. ولكن جولة أخرى من الجنس كانت تنتظرني في المستشفى بالذات! هل تُصدق؟ فقد أفردوا لي غرفة صغيرة في أول الرواق، جلستُ فيها قبل العملية وحيداً، أكتب رسائل لأهلي وأصدقائي وأتذكر مراهقتي الحالمة، وكيف كنا ندرك جوهر الحب، كان القلب ينبوع صفاء، العينان طافحتان بالأسرار، وابتسامة واحدة تكفي، ابتسامة واحدة تجعلني أسعد إنسان في العالم. يا أرض الحرمان.. يا آلهة الشرق.. ويا جنة المحبين، كيف توارت أيامي الخالدة تلك؟ كنت أردد. وكانت العصافير تطير وراء نافذتي، تتناهى إلي أصواتها وهي تدور وتمرح، وأميز زقزقة أحدها يقترب ثم يختفي ثم يعود من جديد، لم أكن أعلم ما ينتظرني، لم أكن أدري أن العملية بدون تخدير، ففي اليوم التالي نُقلت إلى غرفة الجراحة ولم يكن هناك سوى طبيب واحد، أمسك بالمسدس وألهب الدُمَّل بعشوائية إلى درجة أنني شممت رائحة الجلد المحروق، وصرخت بكل طاقتي وأعادوني إلى الغرفة وأنا أردد بصوت عال ياإلهي.. يا للفظاعة ماذا حدث؟. ولكن عند المساء كان الألم قد سكن، فعبرت الرواق إلى ركن التلفاز وكان هناك بعض المرضى يلعبون الورق حول طاولة مستديرة جلس إليها ثلاثة رجال وإمرأة، فأخذت أرنو إلى التلفاز، وفجأةً أدخلوا رجلاً يتصبب الدم من رأسه فيسيل إلى أخمص قدميه، وأجلسوه على كرسي متحرك بانتظار الطبيب فصرخت المرأة من بعيد:

– يا إلهي.. ما هذا؟ من ضربك؟

فأجابها بصوت خافت:

- زوجتي!

فقهقه الأربعة صاخبين، وأردفت المرأة وهي لا تزال تضحك:

- بماذا ضربتك؟ ببلطة!؟

فنظرتُ في عينيها مؤنباً، وكانت مجموعة من الممرضات قد حضرن ونقلنه إلى إحدى الغرف، بينما أخذت المرأة تردد بصوت عال وهي ترمي الورق، أرايتم!.. يا للمرأة الروسية المتوحشة، إذا عاد النظام الأمومي إلى العالم فإنه سيبدأ من روسيا، وأردفت:

- وأنتَ ما بالك تحك قدمكَ برجلي، هل تقصد شيئاً؟

فاحمرَّ من الخجل، بينما تلوَّى الآخران ضاحكين ساخرين فقالت:

- وأنتما لستما أفضل، تتغامزان وكأنكما تنويان افتراسي في فراش واحد.

فازدادوا إغراقاً في الضحك بينما قال أحدهما ويكاد يُغمى عليه:

- أليست المرأة مشاعاً في الشيوعية كأي شيء آخر؟

وغادر الأول المنضدة، ودخل وهو يعرج إلى غرفته فقالت:

- انظروا.. ماذا كان فعل لو كان سليماً!

وأشارت إلي:

- هيه.. أنتَ.. ألا تلعب الورق؟

وحللت مكانه، وكان التلفاز يسأل المواطنين عن رأيهم في الخطة التي وُضعت لزيادة سرعة الإنتاج، فقالت وهي تجمع الورق:

- رأينا أنه ازدادت سرعة النهب.

وأردفتْ وهي توزع الورق وتنظر إلى شعري:

- هل أنت جورجي؟

- لا.. من سورية.

- آه.. أجنبي!

وقال أحدهما وهو يلتقط الورق:

- أرأيتِ كم فضحتنا أمام الأجانب؟

وأخـذنا نرمـي الـورق وقـد لحظـتُ أحـدهما يسـتخدم يـده اليسـرى أمـا الأخـرى فمصابة، بينما أخذ الآخر بعد فترة يشعر بدوار وانسحب إلى غرفته، وتبعه الثاني، فأدنتْ وجهها مني قائلةً:

- أين وضعوك؟
- في الغرفة رقم. [١]
- آه.. لوحدك؟
- نعم.
- هل أُجريت لك عملية؟
- أجل.
- أين؟
- في مكان ما.
- لا يبدو عليك شيء.. هل تملك زجاجة؟
- رباه من أين لي بزجاجة؟
- حسناً.. هل تملك عشرة روبلات.. هناك شخص يمكنه إحضارها؟

فمددت يدي بالمبلغ، فقالت لتداري خجلها:

- يقول دوستوفسكي الشراب هو فرحة الروسي.

وانسحبت تنـادي: « يـوري مكسـيمفتش.. يـوري مكسـيمفتش ». بينمـا عـرض التلفاز بطلاً للإتحاد السوفيتي يصعد إلى منصة وعلى صدره نجمة ذهبية، قائلاً:

- الآن في أيام العلانية هذه، إذا قلنا أنه لا توجد رشوة في الاتحاد السوفيتي سيكون الكلام مضحكاً، أما إذا قلنا أن الرشوة قليلة في الاتحاد السوفيتي فسيغدو الأمر أكثر إضحاكاً.

وصفق له الجمهور مبتسماً.. بينما عادت المرأة وبيدها فودكا سيبيرية:

- حسناً أين أجريت العملية؟ لا يبدو عليك شيء؟
- في مكان ما..
- لننكفيء إلى غرفتك.
- هيا.

- ولكن انتظر لأجلب بعض الطعام من غرفتي.. هناك ثمانٍ يشخرن.

وكان بطل الاتحاد السوفيتي يردد:

- يقول البعض أن دخْل الفرد في أميركا أكثر منه في روسيا بخمسين مرة، هل يوجد عاقل يمكنه أن يصدق ذلك؟ أنا من نفسي أعتقد أنه أكثر بثلاثين مرة فقط!

وانفجروا ضاحكين من جديد، بينما عادت ومعها تفاح وجبن وخبز أسود، فمضينا إلى الغرفة وأغلقنا الباب بالمفتاح، وجلسنا حول المنضدة:

- تبدو لطيفاً جداً.
- أنتِ أيضاً جميلة.
- الليل بارد، درجة الحرارة ثلاثون تحت الصفر.
- أجل.
- ولكن غرفتك دافئة للغاية.. في صحتك.

وقرعنا الكأسين، ونظرَتْ من النافذة وقالت:

- يا إلهي.. هذه نجوم الصقيع.
- إن نجمتي بجانبي.

ولففت ذراعي حول كتفيها:

- يا لك من ماكر، تبدو رائق البال، أين قلت أجريت العملية؟.. رباه.. نسيت السجائر، هل تملك سجائر؟
- أجل.
- هل أعجبك بطل الاتحاد السوفيتي، لقد حارب في أفغانستان، عندنا سبعة عشر منهم حتى الآن.
- ولكن هل تُناسبكِ السجائر والفودكا بعد العملية؟
- أوه.. الفودكا شفاء لكل الأمراض.. أتراك لا تعلم هذا.. أما في الفراش فسأغدوا صبية في العشرين.

وقامت بعد قليل، وأطفَئَتْ الضوء بنفسها، وأخذت تنزع ملابسها بينما ظللت جالساً في مكاني أرقب جسدها العاري تحت ضوء القمر المنسل من الزجاج.

- هل أنا جميلة؟

– أجل.. أجل.

– واستلقتْ على السرير تحت الضياء مبتسمة:

– آه.. ما أعذب أن أكون عارية في غرفة دافئة بجانب شاب حنون بينما يسبح في الخارج صقيع مُفزع فوق الثلوج والجليد.. ما بك لا تكف عن النظر إلي.. أتراني جميلة إلى هذا الحد؟

كان مشهدها ساحراً فعلاً، تحت النور الفضي الآسر.

– سنعود إلى الشراب بعد قليل لا تخف!

ونظرتُ من النافذة إلى النجوم الباردة المنسية في السديم الغامض الأبدي.

– هيا.

وفتحت لي ذراعيها.

– لا أقدر..

– لماذا؟

– لأن العملية أُجريت هناك بالضبط.

فعصفَتْ بها موجة من الضحك المجنون سمع أصداءها حارس الليل في الأسفل فأخذ ينادي:

– هل أنتم مرضى! أم هذا « ريستورانت »؟

ودنونا من النافذة، وكان يخب على الثلج وبيده مصباح كشاف، ففتحَتْ الزجاج وقهقهَتْ صارخة:

– اصعد.. في حجرتي رجل مخصي.

يا للروسيات يا فيليب!... إنها تكلمك في الفراش عن الحب كأنها تعبدك، وفي اليوم التالي تجدها في أحضان شخص آخر.

– ربما لأن من عاشرتهن لم يكنَّ سوى ساقطات، هل تذكر مُدرسة اللغة عندما وصفت المرأة الروسية الحقيقية بأنها لا تنام معك حتى تشتعل بها هياماً وتتأكد أنك لن تتركها حتى تتزوجها دون أن تعرض عليك ذلك، وأن الشاب الروسي الحقيقي لا يضاجع فتاة أخرى إذا كان يملك صديقة وفية.. لماذا مثلاً لم تعاشر إمرأة واحدة فقط؟

– لقد حدث بعد ذلك مباشرة، في ذلك البرد المروع بالضبط، فقد زارني في المستشفى « أرتور » الأرمني، أنت تذكره، الذي كان يبيع لي طُرود الساعات والجينز والملابس التي تتدفق علي كل شهر.

– أجل، أجل.

– فطلبت منه أن يجد لي غرفة، فعاد بعد أسبوع منهكاً وبيده العنوان:

– ستسكن مع امرأة وطفلها في شقة واحدة، ولكنني لست متأكداً، لا أظن أن في مدينتنا إمرأة تفعل ذلك، دعنا نجرب يجب أن تعدها بهدايا ونقود كثيرة، هل تستطيع أن تدفع مثلاً مائة روبل في الشهر؟

– أجل.

– ومع ذلك لن تقبل على ما أعتقد.

– وفي اليوم التالي مضيت إليها، وكان جرحي قد شفي، وكان الثلج يملأ الشوارع والحدائق والجسور، وكان الشجر ينوء تحت أحمال ثقيلة منه تكاد تقصف أغصانه، وكان النهر قد تجمد وغدا سطحه من الصلابة لدرجة أن حافلة يمكن أن تعبر فوقه، وبدا جليده تحت الشمس المشرقة والسماء الصافية يلوح من بعيد أزرق، وكانت الجبال الثلجية تقف ساكنة حالمة ترقب المدينة والبرد، وسرت فوق النهر إلى الضفة الثانية إذ لم يعد أحد يلجأ إلى الجسور ليعبر من ضفة إلى أخرى، وكنت أفكر: ما عساني أقول لها؟ من أنا بالنسبة لها حتى تقبلني؟ يجب أن تكون البداية طيبة، ولكن وجهي قد تيبس من الصقيع، أية كلمات يمكن أن تخرج من فمي بعد الآن؟ ومالت بي الدروب الضيقة المُزاح عنها الثلج إلى سفوح السلسلة حيث اقتربتُ من المدخل، وصعدت إلى الطابق الثالث وقرعت الجرس، فخرجت لي إمرأة في الثلاثين، عيناها خضراوان، شقراء، تميل إلى البدانة، ونظرت إلي مستفهمة، فعرفتها بنفسي ومن أجل أي شيء أتيت فمدت يدها مصافحة:

– تاتانيا ستيبانوفنا.

فقلت:

– آه.. أنتِ من كتب عنها بوشكين؟

فارتسمت ابتسامة امتنان على شفتيها:

- هل أقترب من ذلك الجمال؟

فقلت بسذاجة:

- هي تقترب من جمالك.

- فتسربتْ ضحكة إلى فمها لذلك الإطراء وقالت:

- حسناً تعال، لتدفأ.

وخلعْتُ معطفي وقبعتي وقفازيَّ، وحين مررت بجوار إحدى النوافذ تبدت لي سلسلة ماشوك المثلوجة شلالاً متراقصاً من الضياء تحت الشمس الحالمة فتوقفتُ قليلاً فقالت:

- ما بالك؟

- إنها بملابس العرس.

- أجل غدت عروساً.

وجلسنا، ونظرَتْ إلى ثيابي الزاهية، وإلى ساعتي وحذائي وجواربي ورأت أنه ليس لها مفر من أن تقبل، ودائماً وهذه حكمة إذا لبست ثياباً أنيقة فقد سيطرت على ثلاثة أخماس قلب المرأة.

- ثلاثة أخماسه!!

- حسناً لنقل نصفه... ولقد فاجأتني أن زوجها في السجن، وأنها تعمل بائعة، وأن طفلها في الرابعة من العمر وهي تحبه كثيراً، وليس لها أقرباء في المدينة، فأمها في مورمنسك على الحدود اليابانية، وأختها متزوجة من يهودي في مينسك، وأن هذه الشقة قد انتقلت إليها من والدها الذي حصل على أوسمة كثيرة في الحرب العالمية الثانية. وحدثتها عن نفسي وعن طعامي الذي أتناوله في المطاعم الشعبية ومسكني الأصلي في مبنى الطلبة في غرفة قرب المراحيض رقمها « ٥٠٢ ». ثم اتفقنا على كل شيء، وعلى أن أعود في المساء ومعي حقيبتي لأشغل الغرفة الأخرى المتبقية، ولكن حين عدت فوجئتْ بأعداد اللوحات التي جلبتها معي وقالت إنهم سيشغلون نصف الحجرة، ثم دخلتْ لتستحم.

وتجولتُ في الشقة وحيداً، كانت الجبال الثلجية تلوح من نافذتي مسفوحة بنور القمر، وكانت حجرتي حسنة الإنارة مكسوّة الجدران بورق أنيق، ثم سرت إلى الرواق

فسمعتها تغني وهي تستحم أغنية آلاَّ بوخاتشوفا « انظر.. كم هو رائع هذا العالم »، فعبرتُ إلى المطبخ الذي تبدى لي زاهياً حديث الطراز يصله ماء ساخن، وغاز عن طريق الأنابيب، ثم انتهيت إلى الشرفة وكانت تطل على حديقة للأطفال وشقق حديثة الطراز لا يحصل عليها إلا الشيوعيون أو الذين انتظروا دورهم عشرين عاماً. وفجأةً نبح أمامي كلب صغير ثم صمت، فدخلتُ إلى غرفتها، فرأيت الطفل نائماً، وعلى منضدة تلفاز غير ملون يبدو أنها اعتادت أن تركله بشكل متواصل لتثبت صورته، وفوقه مكتبة كشيء لا مفر منه، إذ يندر أن تجد منزلاً روسياً بدونها « البيت بلا كتب كالجسد بلا روح ». كما يندر أن تجد حافلة ترام أو مترو دون قارئين، كما أنني لا أعتقد أنه يوجد بلد في العالم يمكن أن تشاهد فيه رجلاً يسير في الشارع وهو يقرأ والمطر يرذ فوقه كما هو الحال في روسيا.. وقرأْتُ أسماء المؤلفين: شولوخوف، بونداريف، تشيخوف، تشِرنيشِفسكي، ومؤلفات شكسبير كلها، ولكن لم يكن هناك أي انجيل، فالإنجيل كالقرآن يباع في السوق السوداء بسبب الحظر الشيوعي غير المعلن بمائتي روبل، أي بضعفي راتب موظف. وفوق، على حائط الشوفاج وجدت الراديو الروسي، وهو مذياع لا تجد مثيلاً له في العالم كله، يُثبت عادةً على الجدار، وليس به أي زر، يعمل بمجرد وصله بالكهرباء، ويلتقط إذاعة واحدة هي صوت موسكو فقط، وعدتُ إلى حجرتي، ونظرتُ إلى جبال المساء المضاءة، وتمددت على السرير: تُرى متى إذن سأضمها إلى صدري؟ وكان قلبي يخفق.

وبعد ساعتين خرجْتُ إلى دورة المياه، فلمحتها تقرأ جريدة في المطبخ، وعلى وجهها تعابير جدية رزينة، فعدت إلى الحجرة وجعلت أرسم الجبال ثم استغرقتُ في النوم. وفي اليوم التالي ارتأيت خطة محكمة، فجلبت زجاجة كونياك فرنسية وسجائر أميركية من متجر العملة الصعبة، وأخرجت من حقيبتي ساعة ذهبية اللون، وانتظرْتُ حتى نام طفلها، فأخذتُ لوحة « جبال المساء الثلجية تحت ضوء القمر » ومضيت إلى حجرتها، موجهاً اللوحة إلى بصرها، وكانت تُحيك قطعة من الصوف وتجلس إلى منضدة:

– ما رأيكِ؟

فأسقطتْ كل شيء عن المنضدة، وحملتها بيديها الاثنتين وقالت:

- رائعة! لابأس.. بل مدهشة، لعلك قضيت ليلة البارحة ترسم إذن؟

- أجل.

وجلستُ إلى جانبها، وكانت لا تزال ممسكة بها، وقالت:

- تبدو معجباً بالطريقة الكلاسيكية، هل لوحاتك الباقية على هذا النحو؟

- أجل.. نعم.

- إنني أميل إلى رسوم الانطباعين.. حسناً عندما كنتُ صغيرة كنت أحب هذا النوع.

وأعادت إلي اللوحة فأمسكتها ولم أدر ما أكمل فجعلتُ أتأمل المكتبة ثم قلت:

- لا يبدو بين كتبك أي إنجيل، ألا تؤمنين؟

فضحكت بتلك الطريقة التي يقوم بها أحدنا عندما تسأله فيما إذا كان يؤمن بالسحر وقالت:

- لا أحد يؤمن الآن في روسيا، ولم نكن أفضل حالاً بكثير في القرن الماضي حسب رسالة وجهها بيلينسكي إلى غوغول عام ١٨٤٨ أن الشعب الروسي من أكثر الشعوب إلحاداً.

- إذن أنتِ شيوعية؟

فضحكتْ مرة أخرى:

- لا..

وأردفتْ:

- لقد أيقظتْ الشيوعية وجدان العالم في الماضي، لفتت انتباه الكُتّاب والشعراء، والفنانين بالأخص، إلى ما يحمله جوهرها من عدالة، ولكن بين علماء الاقتصاد نَدَرَ من أحنى رأسه موافقة. تأمل ما قاله دوستوفسكي منذ القرن التاسع عشر: إن الشيء الذي يخلب ألبابهم في الشيوعية إنما هو جانبها العاطفي، المثالي، وليس واقعيتها، إن الشيء الذي يفتنهم فيها هو نوع من الروح الشعرية، نوع من الروح الدينية إن صح التعبير.

- بم تؤمنين إذن؟

- ليس بشيء، إن روسيا كلها لا تؤمن بشيء الآن.

وأردفتْ:

- وأنت من هم آلهتك؟
- نيتشه!
- إنه فاشي.. لقد استمد النازيون أفكارهم منه.
- ليعتقد النازيون ما يريدون، فمن بين الأوراق التي عُثر عليها بعد موته قوله إن النشيد الجرماني « ألمانيا فوق الجميع » أغبى شعار عرفه العالم.
- لقد هزمْنا النازيين شر هزيمة.
- لقد توقع نيتشه مسبقاً ما يمكن أن ينشأ عن روسيا من قوة عظيمة، وهذا ما حصل بالفعل، لقد أثَّروا فيه بإرادة القوة الغريبة عندهم، واندفاعهم الجنوني المذهل.
- وساد الصمت من جديد فعادتْ تنظر إلى الرسم وقالت مجاملة:
- يا لها من لوحة.. إنها تُسكر.
- ما رأيكِ بأخرى تُسكر أكثر؟
- هل بالفعل هي كذلك؟
- نعم إنها زجاجة كونياك فرنسية.. منسية منذ مدة في حقيبتي.
- يا لك من ماكر.
- يا لعينيك المغرقتين في بحر أخضر.

ومضيت بسرعة وجلبتُ الزجاجة وكأسين، فوجدتها ترنو إلي ذاهلة، وصببت وقبل أن تقول لا أو نعم قرعت كأسها وهو لا يزال على المنضدة وقلت:

- نخب من سنشرب؟ بيلينسكي؟

فضحكتْ وهي تتناول الكأس:

- نخب نيتشه ما دمت تحبه.

وشربنا نخبه، وأخرجتُ السجائر من جيبي، وأشعلتُ لها إحداها، فأخذَتْ تداعب العلبة وهي ترنو إليها ثم قالت:

– إن السيجارة الروسية سرعان ما تنطفئ في فمك، وتصبح بحاجة إلى أن تشعلها من جديد، ولكنك إذا نسيتها مشتعلة على منفضة مثلاً وخرجت فإنها تحرق لك البيت كله.

وكانت تلك المرة الأولى التي أضحك فيها من أعماق قلبي منذ أتيت إليها، فَعَلَتْ وجهها البهجة، واستمرت في تقليب علبه السجائر. إن شهوة الروس للسلع الغربية كضعفنا نحن أمام الجنس. لم يبق سوى الإستعانة بقول حنا مينا: لا تنزل المرأة سروالها حتى تضع فيه مجيدياً وقلت:

– ما الوقت الآن؟

وأثنت ذراعها ونظرت في ساعة مصفرة بدائية وقالت:

– العاشرة إلا ربعاً.

– آه.. يا لها من شيء أثري.

وأدرتُ حول معصمها أخرى تتألق، حديثه الطراز.

– إنها أثر من آثار زوجي.

– بالمناسبة ما الذي أودى به إلى السجن؟

– لقد سرق.

– ما الذي سرقه؟

– لا تتدخل.. ليس الشرف في نظر الروسي إلا حِمْلاً لا فائدة منه، والأمر على هذا النحو في جميع الأزمان على امتداد تاريخ الروس كله، وهذا القول من رواية دوستوفسكي « الشياطين ».

– أهل حقاً قال هذا؟ ربما على لسان أحد أبطاله!

– وما الفرق؟

– أنا لست على الاعتقاد القائم على أن في هذه المعمورة أُمة أشرف أو أفضل من أخرى والدليل أن الحضارة كانت تنتقل دائماً من مكان إلى آخر، من مصر الفراعنة إلى إغريق اليونان ثم الحضارة العربية وقبلها حضارة الآشوريين إلخ إلخ حتى انتهت اليوم إلى الغربيين.

ولـم تقـل شـيئاً، جعلَـتْ ترنـو إلـى السـاعة الجديـدة، فلففتُ ذراعـي حـول كتفيهـا فأجفلت:

- لا تلمسني، أرجوك.. ماذا تقصد؟

وقلـت فـي نفسـي دع الخمـر تفعـل فعلهـا أولاً، ولكنهـا كانـت تبطـئ، ولا تتنـاول الكأس حتى أدعوها، وعدت أتأمل المكتبة:

- من أكثر من تحبين؟
- شكسبير.
- ومن الروس؟
- تورجينف.
- ومن هذا القرن؟
- لا أحـد.. تبـدو كتابـات معظمهـم وكأنهـا بـأمر مـن الحـزب، أيـن لنـا الآن مـن مثل تولستوي أو بوشكين أو تشيخوف؟!
- في الغرب أيضاً لم يعد يوجد مثل ديكنز أو هيجو أو بلزاك.
- لا أحد يمنعهم هناك من أن يكونوا كذلك.

وأردفتْ بسرعة:

- إسمع.. أخشى أن تكون شيوعياً فتودي بي إلى سيبيريا.
- لا، إنني نيتشوي.

وضحك كلانا.

- قل كم فتاة أحببت؟
- لسـت أذكـر... لقـد تـوارين كلهـن عنـدما رأيتـك.. كمـا يحـدث للنجـوم الواهنـة عندما تبزغ الشمس.

فأدارت وجهها إلى الاتجاه الآخر وهي تبتسم بشفتين مطبقتين.

- لعل فتاة واحدة لم تخذل هذا الوجه الجميل في روسيا.
- شكراً.. يا للمجاملة.
- أليس كذلك؟

– بلى لقد حدث مرةً ولكنها كانت أذربيجانية وليست روسية، وكنت أجلس إلى منضدة في كافتيريا « الشاي الروسي » عندما لمحتها وحيدة تنتظر الطعام، وسرعان ما سَرَت غبطة عميقة في نفسي عندما لمحت شعرها الأسود متدلياً على كتفيها، وأخذتُ أنظر إليها بصمت وعينين مليئتين بالحب، وألقت علي التفاتة وقالت عيناها: من أنت؟ وأجابت عيناي: لست أدري.. لست أدري.. وعادت ترنو إلى الزبائن المرحين والأضواء المبعثرة، بينما ظلت عيناي تائهتين على شعرها وعينيها السوداوين، ونظرتْ إلي ثانيةً، وذُهلَتْ لتلك العينين المغرمتين الذابلتين وتساءلَتْ عيناها: أتراك تريد أن تغويني؟ ولكن عينيَّ تحولتا إلى الأرض ولم تجيبا، وسرعان ما التفتَتْ من جديد والتقت نظراتنا وقالت عيناها: أيعقل أنك أحببتني؟ وعَلَت وجهي حمرة شديدة، وأردت أن أخفي اضطرابي فأزحت خصلة شعر عن جبيني وعيناي تومضان كمياه ساقية في ضوء القمر، ولكن فجأةً جاءها طبق الطعام، فانقضت عليه، وجعلَتْ تبتلع وتمضغ، مدنية فمها من الطبق، وكانت لا تنفك تشرب بعد كل لقمة، وكانت عيناي تنتظران، تستجديان نظرة واحدة، ولكنها لم تعد تُلقي علي بالاً أبداً. وقلت: رباه.. ماذا أرى؟.. حسناً هذه هي الفتاة الوحيدة التي خذلتني.

وأخذتْ تاتانيا تُغرق في الضحك، ثم وضعتْ معصمها على فمها بخجل كأنما تريد أن تكبت الضحك المتبقي فقلت:

– ولكن أين لها مثل جمالكِ وثقافتكِ، أين لها من هذه البشرة البيضاء والعينين الأشبه ببحر يسبح فوقه الفجر، أين لها من هاتين الشفتين والوجنتين، إنها أمامك أشبه بشجرة قرب قوس قزح، إن ملامح وجهك تعكس روحاً لا نهاية لرقتها ولا حد.

ووضعْتُ يدي على كتفها ولكنها هذه المرة بقيت راضية، فأطلقتُ العنان لمخيلتي، وأخذتُ أُلقي على مسامعها كلمات لم تألفها من شاب روسي من قبل، وأقص لها حكايات حب عربية، وأترجم لها أشعاراً وقصائد، حتى كدت أنا نفسي أغرق في الدمع، فقد بدأتْ تتراءى لي مراهقتي والحب الذي طالما تمنيت أن يكتمل، روحياً خالصاً، وبدأت أتصور ذراعي حول كتفي فتاة صغيرة خجولة من حَيِّنا، وطفح قلبي بالأشواق وعيناي بأسرار قصة حب غريبة فأخذتا ترسلان وميضاً غيوراً، وقد نسيت تماماً أنني بجانب إمرأة روسية تُشعل الكلمات اللطيفة رغائبها إشعالاً،

وفوجئتُ بعينيها تقولان خذني إلى السرير وتنتظران مني مضاجعة ضارية، فارتعدتُ، لقد أطار كلامي من نفسي الهوى وأسكرها حب عذري غامض، وذكريات ليس الحب فيها سوى كالصلاة، فلذتُ بالتلفاز ورفعتُ صوته، وأخذتُ أحدق بالرئيس وهو يُلقي خطاباً:

- إلى ماذا تريد أن تستمع؟ لقد شجب غورباتشوف وندد واستنكر وأوضح ثم حيا وأشاد وأعرب وافتتح والتقى وأثنى وشدد وفي النهاية صفق له الحاضرون.

- لا.. يبدو مختلفاً هذا الرئيس.

- حسناً.. تعال إلى غرفتك لنرنو إلى الجبال.

ودخلنا صامتين، ولم نشعل الضوء، ولم يكن هناك أي قمر، لقد ابتلع الليل الجبال فلم تظهر، وكانت أضواء المنازل تنبعث من بعيد، غاطسة في صقيع قارس، ولبثنا أمام النافذة هادئين، ثم شعرتُ بذراعها تلتف حول خصري، وكنت لا أزال في حيرة من أمري، كيف بعد أن تهيأتْ نفسي لمعانقة المطلق، وخِلتها تتسلق درجات السماء، سأتمرغ بإمرأة، وأعود إلى ثوب الأرض؟ ولكن دعاباتها وضحكاتها أخرجتني عن طوري بعد مدة، إلى حد أنها قالت لي في الفراش:

- أنت بركان.. بركان حقيقي.
- يعني أنني قرد!
- لِمَ؟
- لأن القرد أعظم من يضاجع.
- لا.. أنت إنسان يا حبيبي.. إنسان جنوبي.

وغادرت الحجرة وجلبتْ زجاجة الكونياك والسجائر وبعض اللوز، وعادت إلى السرير تاركةً الباب مفتوحاً، ودام عناقنا الثاني طويلاً، طويلاً جداً، جعلني أتساءل بعدها: تُراني من أية سلالة من القرود انحدرت؟ أحس كلانا فيه أنه على وشك أن يغرق في لجة من البهيمية، أو ينعتق بشكل ما من حالته الإنسانية، وفجأةً دخل الكلب ووقف على المنضدة وأخذ ينبح بضراوة في وجهينا فقالت:

- لا تأبه له إنه يغار.

واقتعدتْ السرير:

- اخرج من هنا أيها الغيور!

ولما كان الكلب لا يفهم الكلمات الروسية الصعبة ظلَّ واقفاً في مكانه فقالت:

- ألا تسمع.. لعلك لا تسمع؟

ورمته بالوسادة فاختفى يخور بصوت خافت حزين، وفي المرة الثالثة أخذتْ تهذي: مراد.. كفاية.. أكاد أجن، وظللنا متعانقين حتى الفجر، حيث عادت إلى حجرتها، وظللت وحدي أرنو إلى جبال الثلج في الضياء الواهن للكون حيث ابتلعني بئر النوم.

وفي الصباح غادرتُ الشقة دون أن أقول وداعاً، فعلتها الدهشة، وعندما عدت في المساء دخلتُ غرفتي دون أن ألقي تحية، فذعرتْ، فمنذ اليوم التالي عدت إلى عادتي الذميمة في اعتبار المرأة دجاجة، إذ لم أستطع أن أمزج علاقتي بها بأقل من القليل من الحنان أو العطف، كانت مجرد جسد بالنسبة لي، وكان الجنس دنساً لذيذاً ما إن ينتهي حتى أفر إلى وحدتي وأعود إلى مرسمي ونافذتي وآلهتي قبل أن يتوه مني الأمل بخلاص موعود غامض.

وبينما كانت تنتظر يوماً بعد يوم متى أبدأ بالخروج من الصمت المتعالي الحذر الذي كانت تظنه بورجوازياً ويضع حاجزاً بيني وبينها، كنت أنتظر متى تنقطع عن الكلام معي نهائياً وتعتبرني مجرد هوام فتكف عن تقطيع سلاسل أفكاري المتواصلة من الصباح حتى المساء. على هذا النحو كان يتقدم ذلك الشتاء في بلدتنا الغافية في سفوح الجبال. الثلج يتساقط على البيوت، والنهر راقد من بعيد، نفسي راضية مطمئنة بعيدة أحياناً عن التفكير العميق والاستغراق الروحي، ملهوة بلذائذ جسدية بخسة. ولكن مثل هذه الحال لم تكن لتروق لها فقد كانت تظن أنها ليست سوى عاهرة في نظري، والواقع أنه لم يكن أمامها خيار آخر فإما أن تقبل نقودي وهداياي وإما أن تعود إلى الفقر منتظرة زوجاً فقيراً قد لا يأتي.

وكانت تنظر إلي معاتبة عندما أتأخر كثيراً في الغرفة، وأحياناً تقرعني عندما أترك المرسم فتراني ماضياً إلى المرحاض أو المطبخ، فتُشَتِتْ نسيج الأحلام والطمأنينة الذي يغشى مخيلتي. فصرخت بها يوماً: أنا لست زوجك ولست حبيبك وليس مطلوباً مني شيء، رباه كم كنت قاسياً نذلاً تلك الليلة وأجابتني بصوت كله

خضوع لا أتصور أبداً أن يصدر عن مواطنة تعيش في أقوى بلد في العالم. قالت: « نعم، أنا جارية وأنت الخليفة ».. أرأيتَ، أرأيت ماذا فعلت الشيوعية بأبنائها؟ من نحن يا فيليب حتى تتهافت علينا الروسيات؟ وإنني لأقول لك أن هناك من الطلاب من يقومون بإذلال أكثر بكثير، هل تصدق أن زنجياً من مالي تزوج فتاة روسية ثم أخذها إلى هناك وباعها إلى رئيس القبيلة بألفي دولار[1]؟. وذات ليلة جئتُ بعد منتصف الليل فوجدتها في السرير فاندسست قربها، وظننت أنني أتنقل من فتاة إلى أخرى فقالت شبه باكية ووجهها إلى الجدار: تصطاد وتصطاد وتصطاد، الأقل أطعم كلبك. وحطمتْ لي قلبي، فقد تذكرت أن عيد المرأة قد مر ولم أجلب لها زهوراً أو هدية.

وكانت تقول لي مثلاً أنها حصلت على مكافأة كبيرة من العمل ما يعادل أجرة شهر، أو سيصلها هدية من مينسك فاخرة فاخرة إذا غدا صهرها مديراً، وكانت لا تقول لي ذلك إلا لكي أعتبرها حبيبة أو صديقة على الأقل فهي ليست بغياً وليست بحاجة إلى نقودي، ولكنني كنت أفشل في ذلك وأقول في نفسي لا يمكن أن أحب سوى فتاة شعرها أسود وعيناها سوداوان ومن أول نظرة، فأردد كلما صادفتها لكي لا تطردني أخيراً كما فعلت الكثيرات، فالشتاء وراء الأبواب يروع أشد السيبيريين احتمالاً، أينما سرت تجد فوقك سماء مقطبة بلا رحمة وتحتك جليد يهددك بالانزلاق عند كل خطوة، أقول لها وأنا عابر يا لثوبك الأنيق هذا اليوم أو في عينيك كثير من الذكاء أو يا لجسدك ما أروعه، ويوماً بعد يوم لم يعد يفتنها مثل هذا الكلام فقد سئمَتْ من ترداد ذلك، وعندما يصدف أن أقول لها كلاماً ملتهباً حقيقياً تجتاحها موجة من الشبق فتنظر إلي بعينين نهمتين كأنها تنتظر مني ما يفعله عشرة زنوج، في الوقت الذي أكون فيه قد صرت رقيقاً وحالماً وكئيباً لا جدوى مني سوى الوقوف وراء المرسم.

وذات يوم أسمعتها لحن إلياس الرحباني « لا تقولي وداعاً يا حبيبتي »، هل تصدق أنها بكت ورأيت بعينيَّ الدمع يصل إلى خديها؟ صحيح أنني لا أدري السبب المعقول الذي جعلها تبكي ولكنني أعرف أنها قبل أن تسمع المقطوعة لم تكن تبكي

---

[1] – قصة راجت ، لم يكن بإمكاني التأكد من صحتها .

ثم بعد ذلك بكت وقالت أن هذا لا يمكن أن يكون موسيقياً عربياً[1]، ولم تصدق، ولم تصدق أي تأكيد مني فأسمعتها قصيدة له طالما سحرتني في مراهقتي:

كنا نتلاقى من عشيّ
ونئعد على الجسر العتيق
وينزل على السهلي الضبابي
تمحي المدى وتمحي الطريق
وما حدا عارف بمطرحنا
غير السما وورق تشرين
ويقولا بحبك أنا بحبك
ويهرب فينا الغيم الحزين.

وكانت ترتدي كومينو عتيقاً يُظهر فخذيها وتقاطيع جسدها، فأحضرتُ لها مفاجأة: آخر جديداً طويلاً وأنيقاً ظهرت فيه سيدة أوروبية حقيقية،وطارت من الفرح. ولكنه لم يرق لي طويلاً فكنت أردد على مسامعها عودي إلى الكومينو القصير فلا تجيب، وفجأةً انفجرت في وجهي:

- لماذا تريدني أن أعود إليه.. لكي تهجم علي كل دقيقة؟.. تزوجني إذن.

فأقول لها أنها خُلقت للحب وليس للزواج فتجيب:

- تعني أنني عاهرة.
- لماذا تحسبين ذلك؟
- لماذا تُجيب أنتَ أيضاً عندما أبوح لك بأنك تضاجع جيداً: « يعني أنني قرد»؟
- ما علاقة هذا بتلك؟
- كفى.. كفى، كل منا يخادع الآخر ليخفي أطماعه.
- تعنين أنني فعلاً قرد؟
- وأنت تعني أني حقاً عاهرة؟

---

[1]- في تلك الأيام، كان لبنان اسمه سويسرا الشرق.

– إذاً أنا قرد بنظركِ؟

– إذاً أنا عاهرة بنظرك؟

– من اتهمكِ بذلك؟

– حسناً.. كفى... ماذا تفهم أنت عن المرتديلا المقطعة؟.. اصمت.. أرجوك.

– المرتديلا المقطعة!؟

– هذا قول روسي يعني أن المرتديلا للأغنياء فقط، وأنتم العرب يجب أن تعرفوا أن الحرية الجنسية للذين يملكون وعياً كافياً وتكفوا عن اعتبارنا عاهرات.

– ولكن من قال لكِ أنني أظن ذلك؟

– حسناً.. ما سر اعتكافك هناك حتى تُلح عليك الغريزة؟.

أبداً لم تفهم ماذا تعني لي وحدتي، وكانت الأمور تتعقد يوماً بعد يوم:

– لستَ سوى رأسمالي جشع.

– أجل أنيق مثله.

– لست سوى وحش في برية.

– نعم بريء مثله.

– لست سوى حشرة، مجرد حشرة.

– نعم فراشة بيضاء.

لقد كنتُ آمل أن تنقذني هذه المرأة من البغايا، ولكن بعد فترة أصبحتُ بحاجة إلى من ينقذني منها، فقصدت « أرتور » فأجاب ابق حيث أنت لن تجد مكاناً آخر بتلك السهولة.

وازداد مزاجي اعتكاراً في الأيام التي تلت، فذات يوم وصلتْ متأخرة وفتحتْ الباب فوجدتني وراء المرسم وغرفتي مفتوحة فقالت:

– مراد.. أنت هنا؟.

ولما لم أجد فائدة من الإجابة ظللت صامتاً.

فقالت:

– إذن رجعْتَ؟

ولما كانت تراني، لم أرد أيضاً، فهوت على السرير منتحبة:

- مراد.. قل ولو كلمة... لقد خرج زوجي من السجن.

واقتربتُ منها، وداعبتُ شعرها برفق:

- هل تبكين!

- لقد خرج زوجي من السجن.

وقامت إلى غرفتها وجلبتْ خاتماً غريباً من الخشب الملون، وأعطتني إياه قائلةً من يحتفظ بهذا الخاتم يعني أنه لا يزال يحبني وأظل ملكاً له ما شاء فإذا أضاعه فإنني أصبح ملكاً لمن يجده.. وبعد قليل وصل رجل قصير وسمين، كبير الرأس، يرتدي خفين أبيضين وبدلة رياضية زرقاء، وانكفأ الجميع إلى الغرفة الثانية، ورغم أنه لم يبد لمرآي أي امتعاض إلا أن مبيته في حجرتها جعل غيرة كلبية مروعة تجتاح قلبي.....

وقال فيليب مرتاباً:

- ألا يزال الخاتم بحوزتك إلى الآن؟

- أجل.. أجل.

- لقد علمت الآن من سرق غرفتي.. إنه زوجها، ففي الليلة تلك رأيت رجلاً غريباً له نفس الأوصاف التي ذكرتها بالذات يتجول في ممرات المبنى وكأنه يخطط لشيء.. إنه يفتش عن الخاتم المسحور.

- ولماذا يأتي إليك؟

- وكيف لماذا؟.. ألم يبق سريرك فارغاً لعدة سنوات حتى انتقلتُ أنا إليه.. أليس من المفروض أنها غرفتك؟

- يا للنساء.. تُرى ماذا تقصد؟

- الأمر واضح.. تريد أن يُثبت لها زوجها أنه لا يزال يحبها، هل تركْتَ الشقة على الفور؟

- ليس بالضبط، فبعد عدة أيام حملَتْ معها قطيعة شبه تامة بيننا، روُعتُ لمرأى الدُمَّل الأحمر القاني يعود فينمو من جديد، وعندما رآه الطبيب قال أنه لم يُستأصل كاملاً، وأعادني إلى المشفى، ولكن هذه المرة وضعوني في عنبر يحوي ستة عشر سريراً، ورغم أن كل شيء كان نظيفاً كحال الروس دائماً، إلا أن النوافذ

المغلقة جعلت جوَّهُ خانقاً، حتى أنني قضيت معظم الليالي وحيداً أمام التلفاز، وهذه المرة لم يكن هناك أي امرأة أو عزاء، وقد أُجريت لي عملية حقيقية تحت تخدير كامل، ولكن في الأيام التي تلت قضَّ مضجعي بشكل متواصل شخير وحشرجة وتأوهات ستة عشر مريضاً، وفي اليوم السابع حملت حقيبتي وعدت إلى المنزل وحيداً، ولكنني في الطريق شُدهت لمرأى الشمس التي ظهرت فجأةً بعد ثلاثة أشهر متواصلة من الثلج والجليد، وكان الهواء طرياً دافئاً كأن الحرارة قد عبرت فوق الصفر، مما جعل ذهني في أشد حالاته تركيزاً، وأطلق عنان فرحي إلى غبطة لم يصل إليها دينيسيوس[1] نفسه، فجلبت مرسمي وهرعت إلى ضفة النهر، وغمرني الذهول وأنا أرى السطح الجليدي غدا واهناً شفافاً، وطفح صدري بالجنون والنشوة، فملأت راحتيَ بقطع بلورية أخذتْ تومض تحت أشعة الشمس كالبروق، وركضتُ على الشاطئ ضاحكاً هاتفاً: « لقد انهمر الربيع... لقد عاد الربيع » واحترت كيف أعانق الكون الساطع كالحلم، فنصبتُ مرسمي وخططت لوحة « الأبدية التي على هذه الأرض »، ثم جلست عند جذع شجرة أتأملها عن بعد، ولكن هل كنت وحدي يومها؟ لا.. كانت فتاة سوداء الشعر تجلس بعيداً وترقبني صامتة.

ظلَّت وحيدة حتى انتهيت، ثم اقتربتْ بغتةً كما تظهر الجنيات أو هكذا تراءى لي على الأقل إذ ظننت أنني وحيد بين الغابة والنهر، كان شعرها الطويل الأسود قد أذهلني، اقتربَتْ غريبة صامتة وحدقت في اللوحة هنيهة ثم سارت أمامي على الضفة، ولوحَتْ شعرها الريح وأطارت رداءها الأسود الطويل، وظلَّت تبتعد وتبتعد كأنها لا تراني.. إلق ِعلي نظرة واحدة أيتها الفتاة هتفتْ عيناي وهما تتابعان الفتاة الغريبة تلامس قدماها المياه. كنا وحيدين في مكان جد ناء عن آخر محطة للترام فهل يُعقل ألا يُكلم أحدنا الآخر؟ من أنتِ، ولماذا هنا؟ صحت من بعيد فأدارت وجهها باتجاه النهر وقالت أنا سيدة الصقيع، وإلهة الشتاء والجليد والثلوج، الربيع يتوق إلى زوالي وأنتَ رسمتني مهزومة. وتحولَتْ إلى بخار أبيض ثم تلاشت، فاستيقظتُ في الحال فوجدت الشمس لا تزال تُقَبل وجهي، فعلَتْ شفتي ابتسامة طفل: لن تعود قريباً أيها الشتاء، فالآن ينتظرني ربيع طويل وصيف أزرق وخريف

[1] -إله الفرح والخمر والغبطة .

حالم، ونهضتُ من تحت الشجرة التي جلبتْ لي الخدَرْ ونظرت إلى اللوحة قائلاً لن تعود قريباً أيها الشتاء لأنني أنا أردت ذلك، وطويت مرسمي وعدت إلى الشقة، كانت النوارس تطوف حولي وتطير فوق النهر تلامس بجسدها الموج وتلاحق زرقة السماء.

عادت الحياة إلى النهر فمضى يترقرق بين القرى والسهوب والأشجار، ففي الأيام العشرة التي تلت كانت مياه الثلوج التي ذابت تنحدر من الجبال سيولاً وسواقي يُسمع خريرها واصطدامها بحجارة الأرض، وغدا النهر قذراً ممتلئاً بالوحل جارفاً معه الأشجار المحطمة والأتربة وأصبح لون مياهه لمدة طويلة صدئاً لا يطاق. ثم غدا أزرق شفافاً أشد صفاء من السماء نفسها، وهذا ما أوصل مزاجي إلى حرية لم أعهد لها مثيلاً، وكانت الليالي البيض قد اقتربت، وغسق النهر ابتدأ يتأخر حتى الثانية عشرة مساء، وأصبحت تسرح أبصاري فوق الجنة المترامية فتنهِكُ روحي تلك الأشرعة والأزهار والسواقي، إلى أن عثرت على الكوخ، وتحررْتُ من تاتانيا ستيبانوفنا، فوقفتُ ذاهلاً قربه بين السماء وزرقة النهر يخفق قلبي لرؤية المراكب والأطيار وشجر الحور، وعندها فقط، انْتبهْ، عندها فقط عرفتُ تماماً مغزى عبارة نيتشه: لا يجب أن تدفع غرائزك إلى سكون الشبع بل عليك أن تُغرقها بالجمال.....

وقاطعه فيليب:

- من الغريب أن تتحدث بهذا الإشراق رغم ما قد يكون قد أصابك من ناتاشا!
- لأن من يحوم فوق أعالي الجبال يستهزئ بجميع مآسي الحياة ويستهزئ بمسارحها بل بالحياة نفسها.[1]
- ولكن لم لا تتزوج مثلاً وتودع الزنى إلى الأبد؟
- لا أستطيع... لا أستطيع يا فيليب.. هناك قوى أعلى مني تأمرني.. إنني منذور!
- لأجل أي شيء؟
- عليَّ أن أرسم اللوحة التي لم يرسمها أحد.. أو أموت دونها!
- ولكن من قال لك أن على المرء أن يجهد لأجل مثل هذا؟

[1] – نيتشه.

– لأنني إن أكون وحيداً.. إنني إذ أقف متأملاً أمام بحر أو غابة أو عاصفة ثلجية، أشعر بنداء غريب مقلق يصعد من أغوار نفسي ورهبة غامضة خطيرة، أحس أحداً يبحث عني وأنا أحاول أن أسبر مكانه ولكن أحداً منا لا يجد الآخر، فأركض في الخلاء من طرف إلى آخر بلا جدوى، أندفع نحو المياه أو الشجر وافتح ذراعيَّ ولكن لا يضمني غير السراب، فلا هو يقع في أحضاني ولا أنا أعانق سوى الصدى، رغم تأكدي أنه قريب جداً ولكن حواسي الخمس لا تدركه، ولا يهدأ قلبي ولا نفسي من الجنون حتى يبلل عيني الدمع.

– لست أدري.. لقد اختصر الله كل الفلسفات بكلمة واحدة « لا تزن »، وها هو الموت يأتيك كلص في الليل، فلا يُبقي لديك الوقت لتُنجز تلك اللوحة، كم عاقبك الله ولم ترتدع؟

فأجاب ساخراً:

– نعم كثيراً.. وأنت العفيف الذي لم يشته إمرأة جاره ولا حماره ولا ماله. [1]

– بلى اشتهيت وزنيت ولكنني تبت وأقلعت.

– أنت زنيت؟

– نعم.. تصور!... بعد خمس سنوات في بلاد الإباحة هذه زلَّتْ قدمي في عامي الأخير.. وكانت ليلة رأس السنة، وكان الجميع يهرجون ويمرحون في الطابق السفلي... وكانت أصوات الجاز تصل حتى أسماعي في الطابق الخامس، حيث كنت راقداً أقرأ في كتاب للصلوات وأتذكر أخطاء العام المنصرم، وأنتحب إلى الله حتى يُشفع لي واعداً ألا تتكرر، وكانت الدموع تسيل إلى خديَّ، كانت المعاصي كثيرة، وكان بعضها قد حدث في العام ما قبل الماضي وعدت إليه، لذلك كانت دموعي غزيرة كبيرة، وكنت أعلم أن الله محب مسامح فأعود إلى كتاب الصلوات، ولكن فجأةً انقطعت الكهرباء رغم أنها ليلة رأس السنة، وأنت تعلم أنه غالباً ما يحدث هذا العطل في علبة الإنارة التي بجانب لوحة لينين فنقوم بإصلاحه بأنفسنا، وهكذا أخذت شمعة وهبطت الأدوار الخمسة حتى أن وصلت إلى هناك.. أتدري ماذا رأيت على لهب الشمعة؟.. سدوم وعمورة، ليس أقل من ذلك أبداً ولو بقليل، وكانت تحت

---

[1] – الكتاب المقدس .

لوحة لينين فتاة عارية خَدِرَةْ ساقاها مثنيتان تتمايلان إلى اليمين تارةً وإلى اليسار تارةً أخرى فـ........ هذا ما حدث.. يا إلهي بعد خمس سنوات من العفة، لا أعلم كيف حدث مثل ذلك، لا زلت حتى الآن غير مصدق، ثم ركضت سريعاً إلى غرفتي، كمن سقط في بئر من الأفاعي والآن يفر مذعوراً، وبقيت في الظلمة طيلة الليل أندُب وأتوب، حتى خيل إلي أنني أغرق في بركة من الدمع، وبعد ثلاثة أيام عاد إلي توازني وإشراقي، لقد علمت أن الله غفر لي.

وعلا مراداً الذهول، وكان الاصفرار يُلَوِحُ تدريجياً وجهه ثم نطق دون أن يعي:

- أأنت منهم.
- ماذا تقصد؟
- لا.. لا شيء!

واستلقى على السرير مستديراً نحو الجدار وأطرق بصمْت.

وذهل فيليب:

- ماذا تقصد « أأنت منهم؟ ».

ولم يجب بشيء، فامتلأ فيليب ريبةً:

- إسمع، أنا ممن؟ ماذا تقصد؟

فأجاب وهو لا يزال مستديراً نحو الجدار:

- أنتَ متورط أيضاً يا فيليب!

وشرح له كل شيء، فلم يبق من بريق عينيه شعاع واحد، وشحب وجهه حتى كاد يطفر من عيني مراد الدمع، الذي غدا فجأةً كالأحمق لا يجد كلمة واحدة حية يهدئ روعه بها فهتف:

- نعم.. إنهم يصبون اللعنات الآن على ستالين وقد نسوا أنه من امتلك القنبلة الذرية وربح الحرب ثم غدا نصف أوروبا تحت سيطرته...

ثم استدرك:

- حسناً.. استمع طالما أن ذلك قد حدث منذ مدة طويلة تستطيع منذ الآن الذهاب إلى موسكو لتقوم بالتحليل وتطمئن.

وكانت الريح قد هدأت، ونور الفجر الواهن يضيء الستارة، فقال فيليب بهدوء كالحزن:

– أتظنني خائفاً من الموت، أتُراك لا تعرف مَثَلْ التلامذة الثلاثة، حين فاجأهم الكاهن يلعبون في الحديقة فسألهم: ما تفعلون إذا علمتم أن الموت موعده معكم بعد ساعة؟ فأجاب الأول: أودع أبي وأمي، بينما رد الثاني: أهرع إلى الكنيسة لأصلي، ثم قال الثالث: استمر في اللعب! من تظن المصيب يا مراد؟ إنه الثالث لأنه تاب وصام وصلَّى وأكمل كل واجباته، إنه مثلي الآن مستعد للموت. ولكنني حزين لأن حياتي ستنتهي بسبب خطيئة وليس بسبب استشهاد أو أثناء الخدمة، ولأنني فقدت فرصة تقديم مزيد من الخدمات للرب.

وأردف ناظراً إلى ساعته؟

– ومع ذلك علي الآن لحاق قطار موسكو لأرى إذا كان الرب منحني فرصة أخيرة.

وقام وارتدى معطفه وقبعته، ولكن عندما فتح الباب فوجئ بالأرض بيضاء والثلج قد غمر الشاطئ والأشجار، وهسهسة الندفات تتناهى إلى الآذان وتزيد كآبة القلب مرارةً.. لقد جثم الشتاء على المدينة.

------ ٣ -----------------------------------

اختلط ضوء الفجر الشاحب المائل إلى الزرقة مع الضباب والثلج المتكدس على كل شيء، ورفرفت سحابة سوداء مترامية من الغربان فوق الجبال. كان فيليب أول عابر يخطو فوق ثلج المدينة، ثم جلس يرقبه حزيناً من نافذة القطار.. وهو يتناثر على الحقائب ومعاطف المسافرين... منذ خمس سنوات.. وكلما انتصف الخريف، وتساقط الثلج، يلم به حزن غريب جذوره في الأردن، وأغصانه في الغربة، وأوراقه في المستقبل. وهذا اليوم.. غدت شجرة الكآبة أشد رُسوخاً والقطار يعبر به الغابات الثلجية، الندفات تغازل الزجاج، وقطار الفجر يلتهم المدى: كم أنتَ قاس أيها العالم، كم كل شيء فيك باطل، أتراني أستحق هذا العذاب أيها الرب؟ ولم تجلب له مشاهد السهوب الثلجية أي عزاء، كان يرغب في كنيسة ليذرف دموعاً، دموعاً كثيرة كثيرة، فأخذ يدمدم ترنيمة قديمة لفيروز:

شجر الزيتون يبكي　　　وتناديه الشفاء

يا حبيبي كيف تمضي　　　أم تُرى ضاع الوفاء

وتذكر كم أبغضه الناس في السنوات الخمس التي مرت، وكيف لم يكن له أي صديق حقيقي، ثم تذكر الدموع التي كادت تطفر من عيني مراد حزناً عليه فردد: بكى عدوي لما شاهد بليتي[1]. وغاص قلبه في المرارة: إنه يرغب في كنيسة ليذرف دموعاً. منذ كان صغيراً كان ارتجاف غريب يقوده إلى هناك، شعور بالقلق لروح استُخدمتْ حتى أقصى حدود الإنهاك، لقلب ينزف حتى الضياع فيصعد من داخله صوت يسوع تعالوا إلي أيها المتعبون وأنا أريحكم، فيصل قبل البكاء بقليل.

الصباح يقترب، وقطار الثلج يوغل في الضباب، كيف تغير مشهد الكون فجأةً ولم يبق سوى أرواح هائمة بيضاء وسماء كئيبة كالقدر، لم يكن يوقظه من غيبوبته سوى ضجيج قطارات أخرى تعود مغلقةً النوافذ.. اجتاز القطار ساقية شاحبة بلا موج وعبر فوق جسر تشايكوفسكي فبدت طلائع العاصمة من بعيد.

---

[1] – أيوب .

وصل إلى المشفى باكراً جداً، وفوجئ بدوام قسم الإيدز بين الثانية والرابعة بعد الظهر، فعاد إلى مركز المدينة، أوصله المترو إلى نفق الثورة، فرنا إلى التماثيل واللوحات والأضواء: إنه متحف، متحف حقيقي تحت الأرض، ثم صعد به الدرج الكهربائي إلى الساحة الحمراء، سار بحذاء سور الكرملين ورنا إلى نصب النصر، ثم تأمل الثلج المنتثر فوق ضريح لينين وأجراس الكنائس وقببها الذهبية وصلبانها، وحدَّق طويلاً في قبب كاتدرائية أوسبينسكي المتداخلة الألوان والنقوش، طويلاً جداً، حتى قطعت صمته دقات ساعة الكرملين، وموعد تبديل الحرس، فخرج ثلاثة شبان من البوابة بخطى وملابس عسكرية أنيقة، وساروا ببنادق لامعة حتى ضريح لينين، فحلوا مكان ثلاثة آخرين واقفين كالتماثيل هناك، وعاد يرنو إلى الأبراج تتلألأ فوقها نجوم حمراء ساطعة وإلى التماثيل والمدافع والسائحين، وعبرت بوابة الكرملين سيارة « تشايكا »[1] سوداء طويلة مُجنحة، وهي السيارة السوفيتية الوحيدة التي على طراز السيارات الأميركية، والتي تقل المسؤولين الكبار وقاطني الكرملين، تلاها ست سيارات من طراز « فولغا ٢٤ » سطوحها مغطاة بالثلج، وأُغلق الباب وراء الموكب. ولم يجلب له العزاء أيا من تلك المشاهد، واحتار أين يذهب وكيف يضيع الوقت المتبقي، وكاد يتجمد من البرد فدخل متحف لينين ورنا إلى حذائه ومعطفه وسيارة لامعة أميركية كان يستعملها من طراز « روز رايز » وتعجب كيف أُدخلت إلى الطابق الثاني للمتحف، ثم طالع لوحة سيروف وخرج وهو يردد: ملابسه في متحف وروحه في الجحيم، وغادر الساحة الحمراء منعطفاً إلى تمثال درجنسكي ثم سار حتى المسرح الكبير، ومن هناك إلى شارع غوركي حيث طالعنه عاهرات المدينة أمام فندق « إنتوريست » يتنزهن، بانتظار خروج أجنبي، بأمل لقاء رجل أعمال ثري، وكانت إحداهن تعلق صليباً على صدرها فوق المعطف، فتقدم وسألها هل حقاً تؤمنين؟ فأجابت ضاحكة: نعم أؤمن إذا كان ذلك مُربحاً. وغادرها مسرعاً، متوجهاً إلى دورة المياه العامة، وهبط قبواً يُفضي إلى عدة مراحيض، وهناك صُعق صعقاً عندما شاهدها جميعاً دون أبواب، ومرَّ بعدة رجال يتغوطون متذكراً حمَّام مبنى الطلبة وهو يسب ويلعن ودخل آخرها مرتجفاً، وقرأ عن الجدران: كم أحبك يا

---

١ – النورس .

نيويورك! يا لك من لذيذة أيتها المرسيدس! وعندما همَّ بالخروج صُدم مرة أخرى لمشهد عجوز قزم مُلقى في مرحاض مجاور، تنوس على أنفاسه زجاجة فودكا فارغة ملقاة على كرشه الكبيرة، فاقترب منه وقد انشطر فؤاده قسمين، كانت تفوح منه رائحة خنزير، مسنداً رأسه فوق البالوعة تماماً، وشعره مبلل بمياه المرحاض، يسيل لعابه لزجاً حتى ذقنه الكثة، أما جفناه فكانا كبيرين شائبين أشبه بجناحي فراشة، ينحدر منهما بغزارة سائلاً يملأ وجهه فلا تعرف إذا كان بولاً أم دموعاً، وكان معطفه مبللاً هو الآخر رثاً لا يظهر لونه الأصلي إلا تحت الجيوب الممزقة، فاقترب منه وربت على خديه محاولاً إيقاظه دون جدوى، فأشار إلى أحدهم:

- ساعدني.. أخرجه معي.
- إلى أين؟ دعك منه.. سأطلب الإسعاف.. يا للكراهة لقد جلب لنا العار.

وغادر.. كان فيليب يدري أن الإسعاف لن تأتي من أجل رجل مخمور، فأخرج منديلاً وراح يمسح وجهه ويديه وملابسه ثم أقعده فوجد بقعة من البراز تُلطخ معطفه فنزعه عنه، وملأ كفيه بالماء عدة مرات ورش وجهه مما جعله ينتفض فأوقفه وراح ينظف بنطاله، فندَّ عنه صوت واهن جريح:

- ما الذي يجعلك تفعل هذا؟
- لقد قام المسيح بغسل أرجل تلامذته أثناء العشاء الأخير.

وكاد يسقط مرة ثانية فأمسكه من ذراعه ووضع نفسه تحت إبطه وراحا يصعدان الدرج:

- أحقاً تساعد فقيراً مثلي؟
- لم يكن القديس فرانسيس يطيق أن يكون هناك من هو أفقر منه.

ولكن سيارة الإسعاف وصلت على عكس ما توقع فيليب، إنه الآن في مركز العاصمة، وهبط إليهما طبيب وممرض حملاه إليها على نقالة، ورغب الرجل في أن يقول شيئاً ولكن حنجرته لم تسعفه فأشار بيده إلى فيليب فصعد معهم. ولكن ما إن وصلوا إلى المشفى حتى أطلقوه من جديد مرددين أنه ليس سوى سكير. فوجدا نفسيهما من جديد وحيدين تحت الثلج، فقاده إلى كافتريا مجاورة ولكن النادلة صرخت في وجهه:

- إلى أين تجر هذه المبولة؟
- سأدفع لكِ كل شيء.
- لا نريدك أن تدفع.. إذهبا.. لا توجد أماكن شاغرة.

ودمدم الرجل:

- يا ابني ما الذي تبغيه من خدمة رجل مثلي؟
- إنني أخدم الرب، إن كل إنسان هو ابن الله.

وعثرا على بازار مجاور فدخلا، واشترى له طعاماً وفاكهة وشاياً وانزويا يأكلان في أحد الأركان. وقال فيليب مواسياً:

- هيه.. ما اسمك؟
- جيرمان ديك.. وأنت؟
- فيليب.. من الأردن.
- آه.. لقد تراءى لي من اللحظة الأولى أنك لست روسياً.
- لِمَ.
- لأن هذه المدينة مشغولة بالجحود فقط، ولا أظنك ستصمد طويلاً جداً قبل أن تصير مثلهم.

ولم يقل الآخر شيئاً.

- تُرى هل تستطيع أن تظل على ما أنت؟

سألَ وهو لا يزال يمضغ.

- إن أمهلني الرب.. هيا نبحث عن تكسي.. لقد تأخرت.
- ولكن إلى أين؟
- سنرى إن كان الرب يريدني أن استمر في خدمته.

ولم يفهم الآخر شيئاً، وغادرا مسرعين.

- ولكن ما بالك تردد « الرب » « الرب »؟ إن الله قد هجر روسيا منذ أزمان.
- ليس صحيحاً، السماء والأرض تزولان وكلمة الله لا تزول.[١]

---

١ – يسوع .

وكانا قد بلغا المشفى فتركه على أريكة في البهو. ثم عاد بعد نصف ساعة يائساً مصفراً وجلس قربه:

- هه... ما الذي قيل لك؟
- لن تظهر النتيجة قبل ثلاثة أيام.
- ولكن ما الذي فعلته؟ ممَّ تخشى؟
- ومع ذلك أنا سعيد برؤيتك مُشرقاً، هل أنت متعاف الآن؟
- نعم، ولكن أين معطفي؟
- في المرحاض.. سأشتري لك معطفاً جديداً.
- ولكن لم تفعل ذلك؟
- لست أدري.. أشعر أن علي أن أفعل ذلك لأنك إنسان.. ألستَ كذلك؟... أليس ذلك كفاية؟
- لستَ سوى روح مسيحية حقيقية.. لقد تكشف لي كل شي.. رغم بعض الغرابة.
- اسمكَ أيضاً غريب.

ردد فيليب ملقياً رأسه المنهك على ظهر الأريكة فقال الآخر:

- هذا اسمي الألماني، هنا في الاتحاد السوفيتي مليونان من قوميتنا، لقد استجلبتنا الملكة كاترين منذ مائتي عام لنعمل كخبراء، وقد كنا أفضل حالاً، ولكن الحكومة السوفيتية قضت على الفروق بين الجميع.

وأكمل:

- ولكن اسمع نحن ما زلنا محافظين على قوميتنا وديننا، نحن معمدانيون، أتفهم؟ إننا لا نشرب الخمر، كالمسلمين، ولا نذهب إلى صالات الديسكو ولا نقفز كالسعادين ولا تعرض نساؤنا أجسادهن هناك إننا منقطعون للعبادة، إننا مثلك تماماً، ولا تأخذ علي أنا، فقد طردْتُ نفسي من مجمعهم، إذ لم أستطع أن أزيح عادة الشرب هذه، وكنت أرتاح هناك وأشعر بالطمأنينة في كنيستهم، لأنني أعرف مدى الود الذي يشيع بينهم، وأعلم أن أحداً منهم لن يغش، أو يتصرف بشكل ما كما يفعل الروس إنهم كتلاميذ حقيقيين للمسيح، وكدت أذهب إلى هناك عدة مرات ثملاً لولا العناية

الإلهية التي أرجعتني في اللحظة الأخيرة، ولكن اللعنة على الروس هم علموني أن الشراب هو العزاء الوحيد، ولكن لا، هناك عزاء آخر بالنسبة لي الآن، يقولون أن غورباتشوف سيسمح لنا بالعودة إلى ألمانيا قريباً، حيث سنُمنح الجنسية الألمانية على الفور.[١]

اعتدل فيليب في جلسته ونظر إليه وقد خفق قلبه وتألقت عيناه:

– حقاً يوجد في هذه المدينة مؤمنون؟

– إن معظمنا يقطن في كازخستان، والمسلمون الذين هناك يقولون عنا أننا أناس ورعون، تأمَّل مثلاً أن يتربى المرء من صغره على أن الخمر ضلال، إنه لن يصبح سكيراً مثلي عندما يكبر بحال من الأحوال، إذ ما هي فوائد الخمر؟ ليس له أية فائدة، هل هو مثلاً لذيذ المذاق؟ أشك أن تكون أجود أنواع الخمور أفضل مذاقاً من عصير البرتقال أو الحليب، أما هذه الفودكا الروسية اللعينة فليست سوى نسيان، ثم ما الذي يفعله الخمر أكثر من أن يجمع الناس حول موائد اللغو؟ إذا لم نقل أنهم سيسكرون بعد ذلك ويتهارشون.

ازدادت عينا فيليب بريقاً وأكمل الآخر:

– ثم إن يوحنا المعمدان لم يكن يشرب مسكراً وكذلك الآسانيون لم يكونوا يشربون خمراً.

– الآسانيون!؟ من هم الآسانيون؟

– نحن المعمدانيين نؤمن أن يوحنا كان أحد أعضاء جماعات الأسانيين الذين انفصلوا بعنف عن الكهنوت اليهودي لتعاونه مع المستعمرين الرومان، وقد اكُتشف ذلك عندما وجد أحد البدو في جوار البحر الميت بقايا مكتبة تابعة لدير آساني.

أنصت فيليب بشغف شديد، لم يكن يهمه من موسكو شيء قدر هذا الحديث وقد لحظ الآخر ذلك فاقترب وهمس في أذنه:

– إننا نملك في مخبأ سري جمجمة يوحنا المعمدان وسنقوم بتهريبها إلى ألمانيا عندما تسنح الفرصة!

– حسناً ولكن أين تقع كنيستكم؟

---

١ – لقد عادوا فعلاً .

- اسمع إنها حلقة صلاة سرية وليست كنيسة، في منأى عن أعين الـ « كِ جِ بِ »[1].

لحظ العجوز الخيبة وقد بدت على وجه فيليب الذي تساءل:

- ولماذا تكون سرية؟ كم من الكنائس في روسيا! كم من الصلوات تجري كل يوم أحد؟

- ولكنها خاضعة لرقابة صارمة، إذا لم نقل أن الكهنة أنفسهم شيوعيون.

وأردف:

- استمع إن ألف وياء الحياة المسيحية هي المحبة، وقد أظهرْتَها منذ أن وقعتْ عيناك علي في المرحاض، إن القداس يجري كل يوم في الثامنة مساء، وسنستقل تكسي وأرافقك إلى هناك ولكن فقط معصوب العينين، إذ يجب ألا تعلم أين يقع ذلك المنزل، فإذا شرحتُ لهم ذلك قد تتمكن من حضور القداس، ولكن اللعنة لا زالت تفوح مني راحة الخمر.

- لا يزال لدينا وقت لتستحم.

- حسناً.. هيا بنا إذن.. أنا أيضاً اشتقت إليهم.

لقد أصبحا مرحين فجأةً وتشابكت أيديهما وراحا يبحثان والمحبة تغمر صدريهما في المخازن عن معطف، ثم قصدا غرفة في قرية تبعد كثيرا عن آخر محطة للمترو، وهي جزء من بيت كبير تقطنه عائلتان، كانت الحجرة مؤلفة من سريرين كبيرين، وعدة أرائك قديمة، وموقد قربه مائدة كبيرة، وعلى الجدران ذات الطلاء المائل إلى الإصفرار صورة لإمرأة في الستين. وكان يفوح من كل شيء دفء ريفي لمسكن رث من غابر الأزمان، ولكن فيليب جلس سعيداً ريثما أنهى العجوز استحمامه وارتداء ملابس نظيفة، لم تبدُ مع ذلك أقل قدماً من ثيابه الأولى.

وكما يرتعد الليل حين تقصفه البروق هكذا ارتجف قلب فيليب وطفرت من عينيه الدموع عندما سُمح لهما بالدخول، لقد عثر أخيراً على ضالته، من لا ينسى الرب لا ينساه الرب.

وقال له الكاهن وكان كغيره دون أي جلباب:

---

[1] - المخابرات السوفيتية الخارجية.

- أنت إذن من ضفاف نهر الأردن؟
- أجل.
- لقد كان يوحنا يُعمِّدُ الناس هناك بعد أن ترك والديه وتاه طويلاً في البراري، لشد ما نحنُّ إلى رؤية ذلك النهر.
- أجل.. أجل.
- ثم جاء يسوع فعرفه على الفور وعمَّده، هل تدري؟
- نعم أيها السيد.
- حسناً اختر مكاناً، نحن لسنا كالشيوعيين بحاجة إلى دليل مادي لوجود الله، ولا نقيم قواعد الدين على الحجة والبرهان بل على الإحساس الصوفي برونق الكون، نحن نرى في كل صورة من صور الخلق رمزاً قدسياً.

وربت على كتفه ومضى، لم يكن القداس قد ابتدأ بعد، وكانت الصالة جزءاً من شقة فسيحة، وكانت الكراسي غير مصفوفة بانتظام، وكان الوافدون يتبادلون أحاديث ودية بصوت خافت، ثم أخذوا فجأةً يحدقون في شعره الأسود بريبة، فراح يتأمل لوحات ستاً معلقة على الحائط، تُمثل مراحل الصلب من بدايتها إلى نهايتها، ففي الأولى رُسم بيلاطُس البنطي وهو يغسل يديه في حوض الماء. وفي الثانية الرومان يضعون الصليب على ظهر يسوع، أما الثالثة فتمثل المسيح بوجهه الدامي وعلى رأسه إكليل من الشوك. وجاءت الرابعة تُصوره يصعد الجلجلة وعلى ظهره الصليب، وبدا في الخامسة يتعثر ويسقط على الأرض، أما السادسة وهي اللوحة الأخيرة ففيها كان معلقاً على الصليب وسط العاصفة والزوابع التي لفَّت الكون.

وجلس بجانب الشيخ القزم ففوجيء به يبكي، إن كل شيء يذكرُه بآثامه وشرابه الذي لا ينقطع، وكان القداس قد ابتدأ بترنيم خافت على الأورغ، ومع ذلك لم ينقطع الحاضرون عن رمي فيليب بنظرات غريبة كادت تحنقه. كانت أوجه الجميع الآن مصوبة باتجاه المنصة التي شغلها واعظون من المصلين أنفسهم، وقد تحدثوا بالروسية كل بدوره، فشرح الأول عن أن الكتاب المقدس يحدد رسالة يوحنا بعبارة « أشعيا »: صوت صارخ في البرية أعدوا الطريق للرب.. بينما حَمَلَ الثاني على الحكومة السوفيتية والوضع البائس في أصقاع روسيا بأكملها. أما الثالث فوقف

يحدثهم عن اقتراب الأمل بالخلاص وعن تأكده من معارف له في بعض الدوائر أن رحيلهم إلى ألمانيا بات وشيكاً. وجاء الرابع مدهوشاً من كلام زميله وعنيفاً وشرح لهم بلهفة أن الخلاص، بالمسيح فقط، ولا يتم عن أي طريق آخر، وكان آخر الواعظين.. حيث تلا ذلك تراتيل شجية شجية حتى كادت تذوب قلوب الحاضرين، وكأن ذلك أصبح العزاء الوحيد في وحشة الليل الشيوعي، بدت الوجوه مسحورة، وعبق الجو بروائح البخور، وغدا لشجى الترانيم عذوبة غريبة، كأنها مزيج من السهر والفن وصوت الله، وتبدى الحبور على قسمات الجميع، كان كل منهم ينظر برضا إلى الآخر وكأنما زالت الحواجز التي تفصل البشر عن بعضهم فجأةً، وامتلأ المحفل بروائح البخور، وازدادت وجوه الكهنة تألقاً، وبدت في عيني فيليب تلك النشوة التي يلاقي فيها المرء محبوبه، وسط تهاليل الحاضرين وندبهم ونواحهم ودموعهم، وكان لهب الشموع يضيء الوجوه ويُظهر فيها فرحاً قدسياً غريباً، وسارعوا إلى منح أيديهم للضيف الجديد قبل نهاية القداس بود أدهشه.

رُبطت العصابة على عينيه أثناء العودة أيضاً، ولكن هذه المرة ما إن أزالها الشيخ حتى ألفى عينيه دامعتين:

- رباه.. ما بك؟
- لا شيء.. لا شيء..

واجتازا عتبة المنزل، ودخلا الغرفة صامتين، ثم لبث وحيداً فقد خرج العجوز وحضَّر طبقين من حساء الكرنب وشرائح من الخبز الأسود وجلسا حول المائدة:

- كُلْ بسرعة.. لأن ثلاثة أضعاف هذه المائدة لا تملأ كرشي.

ولكن فيليب كان يأكل بخمول وكأن الطعام ينهكه قبل أن يصل إلى معدته.

- كُلْ، كُلْ كثيراً.. ليس على هذا النحو يأكل الشبان.
- نعم يجب أن اسمن قبل الموت حتى يجد الدود مني وليمة فخمة.
- الموت.. الدود..!

وصمت العجوز من جديد، ويبدو أن عجلة دماغه أخذت تدور فتذكر أحداث النهار من أوله، وقال بطريقة مخاتلة مرحة:

- بالمناسبة ما الذي فعلته في المشفى؟

واصطنع أنه يبتلع الحساء كمن لا يهمه ما سوف يجيب، ولكن ذلك كان القشة الأخيرة التي جعلت فيليب يترك المائدة ويتهالك ببطء على السرير ثم يغرق في الصمت، ولم يبدِ الشيخ أية حركة، انقطع عن الطعام بهدوء ثم جلس على سجادة بالية بجانب السرير فقال فيليب:

– قل ماذا يفعل المؤمن عندما يعلم أنه مقبل على الموت وهو مكمل كافة واجباته الدينية؟

ولولا لحية الشيخ الكثة لبدا الإصفرار واضحاً على أنحاء وجهه، ولم يشأ أن يسأل عن أية تفاصيل فقال:

– لا شيء.. يترك الملائكة ترفرف وتقله إلى الجنة على أجنحتها.
– نعم ولكن ما هو واجبه قبل أن يموت؟
– يا ابني ربما يخفف عنك لو قصصت علي ما بك.

وشرح له بمرارة وبالتفصيل كأنه يتقيأ النشاز في مسيرة حياته ويستريح. فأجابه بصوت يرتجف من المفاجأة:

– ولكن لم أنت منطوٍ على نفسك ولمَ تضع ستارة حول سريرك؟ اسمع، في الماضي، عندما كنت في مثل سنك، كنت مؤمناً أيضاً، وكنت أتساءل ما الذي أفعله أيضاً، إنني لا أقتل ولا أسرق ولا أزني، وماذا بعد؟ ثم أنستني الخمر والسنون كل شيء، ولكن عندما هجرني أولادي وتُوفيت زوجتي، بقيت وحيداً، أخذت أنظر إلى الماضي، فوجدت أن الحياة لم تكن أكثر من كذبة مسلية، ووهم كبير، وجدت نفسي أركض من مكان إلى آخر، أعمل وأعمل، ثم ألتفت إلى الوراء فأجد أنني لم أفعل شيئاً، وأن كل ما فعلته لم يكن سوى وهم، وأعود من جديد أفلح الحقل وأُربي الدجاج وأعتني بالأولاد ثم تمر السنون وأجلس مفكراً فلا أجد سوى سراب ما فعلته، لقد جرت الرياح وهطل المطر، وتساقطت الثلوج، لقد جاء الخريف وتبعه الشتاء ثم عاد الصيف في دوامة غريبة لا معنى لها، لقد كبر الأولاد ثم تزوجوا ثم هجروا، وفي كل مناسبة كنت أحاول أن أُبقي شيئاً في قبضتي، ثم أفتحها فلا أجد غير الريح. وعندما جاءت الحرب وجرفني سيلها، دافعت أثناء الصمود الكبير في لينينغراد، وفي يوم من الأيام قلدني رئيس الفرقة وساماً، وقال أمام الجميع أنني أشجع محارب بينهم،

وعينني عريفاً، كنت فعلاً قد استبسلت، حاربت بصبر وكرامة، وذات يوم، كنت وراء المدفعية، وكان وابل الرصاص والقنابل كعاصفة من الذعر، شعرت فجأةً . ولا تظن لأنني ألماني . أن هذه الحرب من أولها إلى آخرها ليست سوى نتنة، فكيف بالأحرى دوري فيها، فهربت أنا وخمسة من رفاقي وعدت إلى هذه القرية، وما إن مرت خمس سنوات وأنا بين أحضان زوجتي . وأشار إلى اللوحة المثبتة على الجدار . حتى شعرت أن السِلم إن هو إلا أنتن من الحرب. باختصار لم يكن هناك ما أتذكره يحوي الخلود، كان كل شيء باطلاً ومريراً ومضحكاً. وذات يوم – وكان ذلك بعد وفاة زوجتي – وصلت في قراءة الكتاب المقدس إلى سِفر الجامعة، فأدركت سر ومعنى الحياة!..

وقام وجلب الكتاب، وجلس يقلب صفحاته، كان فيليب يدري أية عبارة يُريد أن يقرأ وصدق ظنه:

– « فلنسمع ختام الأمر كله، اسمع كلام الرب واحفظ وصاياه وهذا هو الإنسان كله ».

وعدت أتساءل حسناً إنني لا أقتل ولا أسرق ولا أزني فما الذي أفعله أيضاً؟ فأجابني المعمدانيون بأن الآخرين يزنون ويسرقون ويقتلون أيضاً، فأدركت أن الوصية العظمى هي البشارة، وليس الإنطواء على الذات كما فعلْتَ أنت، ولكنني أتفهمك فإن هذا ليس بالأمر السهل في مجتمعنا الروسي.. وهكذا بدأت أُبشر حتى أن أحد البيلاروس قد تعمَّد على يدي، ربما لا تعلم أننا نُعمِّد المرء في سن البلوغ فقط حتى يكون واعياً ما الذي هو مُقدم عليه. ولقد أسرَّ لي بفرح لا أنساه أن المياه أشعرته أنه يتطهر من دنس الدنيا ومن الماضي بأكمله. ولا أكتم عليك أنه أصيب بنوبة برد بعد المعمودية، ولكن هذا غير مهم، وقد كان هذا المساء معنا هناك، لقد لحظْته من بعيد فاقتربت منه وسألته: أما زلت على العهد؟ فقال « لن أنسى لك هذا الجميل أبداً »... ولكن الخمر عاد يتدخل ويُفسد علي حياتي.. آه اللعنة... إنني أسوأ تلامذة يوحنا المعمدان.

نظر فيليب إليه بحنو فأردف:

– كلمة واحدة: البشارة.

أقام عنده ثلاث ليال، وفي اليوم الرابع تسلم نتيجة إيجابية، ولكن ممرضة قالت له: « إن ذلك ليس يقيناً، فالتحاليل لا تزال غير دقيقة في أكثر دول العالم تطوراً فما بالك هنا في روسيا »!.

الفصل الثالث

------- ١ --

معبر الرياح وزحمة الثلوج جعلا مدينة الجبال تلك ملجأ لعواصف مروعة من الندفات، تُطوح رياحها ثلوج السطوح وتقذف بها في الدوامات المجنونة، فلا يُعرف إذا كان الثلج يهبط من السماء أو يصعد من الأرض، وتتساقط الندفات فوق النهر، وتسبح فوق مياهه الرمادية، فيرحل بها في مجراه القدري، حتى تذوب في البعيد البعيد، وتظهر الجسور بيضاء تلفح عابريها رياح صقيعية قارسة. أما الأشجار فقد أصبحت كئيبة صابرة، مثلوجة الأغصان، منتظرة دورة الربيع، وابيضَّ قرميد البيوت، وأخذت قمم الجبال تمتلئ، والحدائق تُقفِرْ، والنهارات تُعتم، فقط الرياح ظلت عاتية مدوية لا يقر لها قرار.

ورغم أن اختفاء ناتاشا ألكسندروفنا ظل طي الكتمان إلا أن موت تِمبو هز المدينة هزاً: « إن الإيدز يرتع في مبنى الطلبة ». كانت إصلاحات غورباتشوف لا تزال في مهدها، فلم يكن قد قام بعد بأية تغييرات حقيقية، فالبيروقراطية والتكتم لا يزالان متفشيين وهكذا لم يتداول أحد من المدرسين أو مسؤولي الحزب أو الأطباء الأمر: إن كل شيء بخير في روسيا، كل الأمور على ما يرام!

أما مبنى الطلبة فقد كان يغلي، لا أحد يعرف شيئاً عن نضال أو فيليب أو مراد، ولكن الحسابات جارية يومياً وعند كل لقاء: لو أن تِمبو ضاجع خمس طالبات فقط خلال سني مرضه، نامت كلُ منهن مع خمسة شبان فقط فهذا كاف ليجعل طلبة كلية الصيدلة يهرعون في الخفاء إلى موسكو كل يوم. وأخذتْ عادة العرب منهم في التباهي بعدد النساء اللواتي يملكون تنحو منحىً غريباً لطالبة جاءت حديثاً مثلاً إلى المدينة مثل ريتا، إن الجميع الآن يتباهى بعفته أو تدينه أو نفوره من الروسيات، وفي الليل، حين يصبح أحدهم وحده في الفراش، تعود إليه الحسابات من جديد: متوالية تبدأ من الواحد وتتزايد حتى يطير النوم من الجفون، ويستمر الذعر يوماً بعد يوم من شيء يحسه ولا يعيه ولكنه يُدرك مخالبه ليلة بعد أخرى فيقف أمام النافذة يرتجف حيث لا تزيده غربان جبل بشتاو سوى رعب على رعب.

وأصبح دخول المراحيض مثاراً للذعر، فكان أحدهم يرتاده كاللص خشية أن يكتشف أحد خلفه أنه مصاب بالإسهال، فقد كانت المياه على مدار السنة مقطوعة، تأتي حسب جداول معينة مكتوبة على الأبواب. أما الطالبات فقد أخذن يقفلن سيقانهن بإحكام ويختصرن اللقاءات الطويلة السابقة مع الشبان بكلمات وجيزة، وامتلأت الصيدليات بالواقي الروسي الذي كان أكثر خطراً من غيابه فقد كان يثير الرعب في القلوب بعد أن يكتشف الشاب والفتاة سرعة تمزقه.

أما مراد فقد طردته الثلوج إلى مبنى الطلبة، وقد عقد العزم أن يرسم لوحته الأخيرة التي طالما خُيل إليه وهو صغير أنه لم يوهب الدنيا إلا لكي ينجزها ثم يختفي، وأسماها « الحب العذري » وكان يغرق كل يوم أكثر فأكثر في ذكريات مراهقته فتتبدى له وجوه الفتيات اللواتي أحببنه تومض ثم تتلاشى كالبروق وكان عليه أن يثبتها قبل أن تتبدد وتضيع في روحه، وكان يلفه السعادة والهيام ما يخيل للناظر أنه بلغ مرحلة الانخطاف فلم تعد تهمه كثرة الداخلين إلى الغرفة والخارجين إنه الآن غير موجود تحتضنه الذكريات والأحلام والماضي، ثم تتراءى له شجرة اللوز فيهمس والدموع تطفر إلى عينيه تُرى هل أراك ثانيةً يا شجرة الربيع؟ وكان كلما تبلل خداه يردد أواه يا نيتشه، يا صقر القرن الماضي، يا منبع كل فرح، يا غيمة سخية على صحراء، يا جوهر الحب في عيني مراهق، فيجيبه: ما قيمتك أنت يا زارا؟ قل كلمتك ثم تحطم.

ولم يبق لنضال عزاء سوى نهر النسيان، وكان يسير كل يوم غير عابئ بالثلج أو بالصقيع، يتأمل الحجارة الحزينة تحت الندفات الصامتة، ويدهشه الموج اللامبالي الخالد، يسأل التماثيل، ويهذي أمام القبور والجسور. كان في جعبته كثير من الأسئلة ليسأل الضباب وأوراق الشجر والرياح: ماذا يعني أن يكون الإنسان حياً؟ ماذا يعني العالم؟ ماذا يعني أن يكون الإنسان ميتاً؟ ماذا يعني العدم؟ لم يكن راغباً في الخروج من الدوامة، فيوماً بعد يوم اعتاد على أن طاحونة الضياع هذه هي الحقيقة، أما باقي الناس فليسوا سوى دُمى رُبطت نوابضها وتُركت تعمل وتأكل وتنام غافلةً عن معنى الحياة والوجود. يتكلم وحده تصفعه الريح، تكنسه مع زبالة الشوارع المقفرة، يضحك ويضحك ويمتلئ طرباً، يقهقه ثم يقنط ويبكي ثم يزعق أمام الأشجار ولا شيء غير

الريح وقمامة المدينة. آه لماذا كُتب علي أن أقضي الحياة مارقاً تحت المشرط؟ يردد، لقد رأيت نصله في مراهقتي، وتساءلت لماذا أعيش؟ وتمنيتُ لو أنني لم أولد، أما الآن فإن كل يوم جديد، كل إشراقة شمس ستخبئ لي جرحاً جديداً.

وعندما وصل فيليب من موسكو وأعلن عدم إصابته « لكن التحاليل حتى الآن غير دقيقة في روسيا »، زاد النبأ من ضياع نضال: إذن حتى انتظار الثلاثة شهور غير مجد، وسيلتهم الخوف حياتنا على أي حال!؟ واصفر اصفرار الموتى لم يخفف منه قول فيليب الجنة في انتظار التائبين، وحين شرح له مراد العَود الأزلي صرخ في وجهيهما: ليس ذلك إلا عزاء، إذ ينهار كل هذا أمام التفكير المنطقي الدقيق، ولا يعود له أثر إلا على النفوس التي تطغى قوتها التخيلية على منطقها العقلي والتي مثلك ومثل فيليب، إن أمانتي العلمية وإخلاصي للعقل يمنعاني من تقبل عزاءيكما! وتركهما وحيدين وهو يفور.

وفاجأ فيليبُ مراداً قائلاً:

- أعطني الخاتم المسحور.. أريد أن أسترد أشيائي المسروقة!.

------- ٢ -----------------------------------

لمْ يتمكن نضال من النوم طيلة الليل، وكان الروسيان يغطان بصورة تُثير دهشته: عجباً هل كل شيء مفهوم في الكون ومتوازن.. ألهذه الدرجة أنتما مطمئنان؟.. وكانت عيناه تجوسان في ظلمة الجدران الأربعة الدامسة. وحين أطل الفجر وراء النافذة، تبدت خيوط الثلج تنسل من السماء، عندها فقط أدركت عيناه الوسن، واستيقظ من جديد في الواحدة، ولم يكن أحد في الغرفة، وكان رأسه يدور والسرير وجميع أشياء الغرفة، ولكن فكره كان قد استقر على خاطر.. سيذهب إلى عيادة الأمراض النفسية.. ولكن أين تقع؟ أين؟.

قصد غرفة زاهر الشيوعي ولكنه فوجئ بالباب موصداً، لم يكن من الطبيعي أن تُقفل الأبواب في غرف يحوي كل منها أربعة أشخاص، فطرق بيديه دَهِشاً:

- زاهر.. هل أنتَ في الداخل؟

وفُتح الباب موارباً وأطل منه زاهر قائلاً:

- عد بعد قليل إنني مشغول!

ولكن نضالاً اندفع إلى الداخل وهو يقول:

- بل هناك موضوع خطير سأكلمك به.

ودُهش وهو يرى ريتا عارية تندثر الفراش ولكنه لم يأبه كثيراً، وتهالكَ إلى المنضدة بينما جلس الآخر على طرف السرير.

إن هذه الفتاة التي وصلت منذ مدة، وبعد أن أكلتْ كثيراً وشربت كثيراً، وغمرت روحها رؤى لم تألفها من قبل ومشاهد وأناس وهواء أنقى مما عرفته في حياتها، أقول بعد كل هذا لم يبق عليها سوى أن تقع في الحب.

وأرخى نضال على ملامحها نظرتين ذابلتين، وكانت روحه تردد:

- سمر.. سمر.

ولم يستطيعا قراءة ما يجري في أعماقه، ولكن ريتا أخذت تخفف من الكآبة التي غدت جزءاً من وجهه مكافأةً له على نظراته التي انسابت عليها حالمة، ولم يصبر إلا لأنه تراءى له أن شفتي سمر تنطقان:

– كم هي رائعة روسيا يا نضال! جبال.. غابات.. تلفريك يصل القمم البيضاء بالوديان، لقد قضينا أوقاتاً ممتعة نتزلج على الثلج، ثم قصدنا مسبحاً غريباً مكشوفاً، إنك تعوم في ماء فاتر ومع ذلك فإن الثلج يتساقط فوق رأسك. حبذا لو كنتَ معنا، لقد زرنا مكتبة غوركي، ومزاراً بعيداً منسياً عند التلال، ودخلنا المسرح حيث كانت تُعرض مسرحية بعنوان « عشق الغجرية ». وأبى إلا أن نتصور وخلفنا راية حمراء ترفرف فوق موج النهر، ورنونا إلى تمثال ليرمنتوف وهو مكتسٍ بالثلج إلى أخمص قدميه. ثم قصدنا متحف المدينة وطالعنا لوحات بطرس الأكبر، وماريا الشيشانية زوجة القيصر إيفان، وتمثالاً صغيراً للعالِم لومانوسوف، ولوحة كولمان التي تُمثل انتفاضة الديسمبريين في بطرسبورج، حين وقفوا فوق نهر النيفا المتجلد ولكن مدفعية القيصر جعلت الجليد يتحطم فغرقوا في مياه النهر، ولكن أكثر ما أعجبني لوحة الأحد الدموي حيث مزق رصاص الجنود عام ١٩٠٥ صدور الفلاحين والعمال الذين جاؤوا يتوسلون أمام قصر الشتاء وداست الخيول الأطفال والجرحى. لقد فعلنا كل ذلك في ثلاثة أيام!.....

وقاطعها زاهر:

– وفعلنا أيضاً أشياء أخرى!!.....

فنظرَتْ إليه معاتبة ثم قالت وهي تبتسم:

– مثل ماذا؟

– أقصد جولتنا في السفينة فوق الفولغا، تصور يا نضال عندما أسير على ضفته أشعر بحبور لا يمكن أن أحس به على أية ضفة نهر في العالم، تجيش في نفسي أفكار وتذكارات وغبطة مثلما يتلاطم الموج على الضفة، إن تدفق المياه أو بزوغ الشمس أو غرقها فيه عند الغسق، إن جسوره التي تُفتح عند مرور سفينة تحتها أو تمثال بوشكين على ضفته الثانية، إن الأشجار أو الفوانيس أو الكنائس على ضفتيه، إن كل خلجة من خلجات الموج، أقول إن كل هذا يذكرني عندما أسير هادئاً على الضفة وأرنو إليه بتاريخ طويل من الأحداث المشرقة والدامية لروسيا القيصرية والسوفيتية.....

ولكن نضالاً ظل ذاهلاً غريباً لا يسمع ولا يلاحظ وقاطعه فجأةً بحدة غير متوقعة:

– زاهر.. لقد سألتك في مرة سابقة عن عيادة الأمراض النفسية وكنتُ جاداً، أما الآن فإنني أهلك...

– ولكن ما بك؟

– لا تسألني.. أرجوك، لم أعد قادراً على السيطرة على أعصابي.. إنني أضيع.. إنني قشة تعصف بها الرياح.

– حسناً.. ليست بعيدة. اتبع خط الترام رقم ٩، باتجاه الوادي الذي تنبعث منه صرخات بنات آوى، قرب تمثال شِفتشنكو تماماً، في المبنى الواقع بين الأشجار، ولكن لستَ بحاجة إلى الذهاب إلى هناك، بل إلى القيام بواجبك، حسناً لقد تخليتَ عن أفكارك فماذا وضعت مكانها؟ لا شيء! وليس ثمة شيء آخر لتضعه: يوجد أغنياء وآخرون فقراء والضمير يقتضي أن يكونوا متساوين، هذا ببساطة كل شيء، ولم يأتِ الشيوعيون إلا لوضع حد لهذا الألم التاريخي بالذات الذي سبب شتى ضروب الحروب والمآسي والانحلال.

– إنك تتحدث على هذا النحو لأنك لم تدرك في يوم من الأيام عمق الهاوية التي وقع فيها الإنسان، إننا أشبه بقافلة تائهة بين الرمال والسراب والكثبان، ما هو هدف ربانها؟ هل هو الضياع في مخططات غامضة عن كيفية توزيع الطعام على أفرادها بالتساوي أم أن يعرف أين هو وسر تلك الصحراء العميقة العديمة الرحمة؟

– إذا لم يتم تنظيم القافلة ستُهلِك الخلافات أفرادها قبل أن يسبروا أية أسرار.

– ولكن لا سبيل إلى حل أهم قضية مثل التفجر السكاني للقافلة عن طريق المساواة علاوة على عشرات العقد الأخرى.

– لقد بدأ الاتحاد السوفيتي بنفسه وتدريجياً تتعافى الأرض.

– ولكنه يغوص في الوحل ولا يرفرف في سماء صافية، وما تكشف عنه العلنية الجديدة إلا دليل على ذلك.

– على كل حال الذين لم يعملوا فقط هم الذين لا يخطئون.

– لا زال على الإنسان أن يسير طويلاً، طويلاً جداً، حتى يعثر على نفسه ويدرك من هو!

– على الأقل هنا توجد خطة لإنقاذ العالم، لنفرض أنها فاشلة، فأي مخطط يملك الغربيون؟

– ليس مصير تلك الخطة سوى الزوال، والدليل ما يجري حالياً من التفكير في إعادة الملكية الخاصة الصغيرة، لقد حدث التأميم مبكراً جداً، كان يجب أن يؤجل ويؤجل، أن يكون هدفاً بعيداً، شعاراً لمئات السنين، كان يجب أن تصبح الشيوعية ديناً.. أن تظل حلماً إلى الوقت المناسب حيث ارتقاء الجنس البشري التدريجي سيضع بين أيدينا عدالة حتمية.

– وقد بدأنا مشوار الألف ميل بخطوة.

– أقل إنسانية، في الاتجاه السالب، أين حرية الكتابة، أين آراء الأحزاب الأخرى المعارضة؟ ليس مصير مثل هذه الخطوة بدون نسمة حرية سوى الانزلاق.

– لقد كانت الحضارة العربية أيضاً تمنع نقل بعض التراجم إلى العربية خوفاً من الوثنية على الدين الجديد، تأكد يا نضال، إذا زالت الدولة السوفيتية لن يسود العالم بعدها سوى الطغيان. رغم أن مثل هذا الافتراض غير مقبول، وأنت تتذكر أنه تعاقب على الاتحاد السوفيتي أثناء دراستنا عدة رؤساء والماركسية اللينينية بقيت. والخطأ الوحيد الذي كانوا يرتكبونه منح برجوازيين صغاراً مثلك لا يؤتمن لضعفهم فرصة للدراسة مجاناً على أراضيهم، وكان الأجدر أن يبحثوا عن مناضلين حقيقيين في السجون.

فصرخ بصوت كالرعد وقد أخذ جسده كله يرتعش ومزاجه يتدحرج إلى الحضيض:

– كف عن الحقد والحماقة وسأصمت أنا أيضاً... لأن الإنسان لن يتبع سوى المبدأ الذي ينقذه شخصياً، الذي بالضبط يتمثل فيه خلاصه، إنه لن يقوم سوى بالمهمة التي عجنته الطبيعة خصيصاً لكي يقوم بها، لذلك يصعب علي أن أغير اعتقادك، لأن المبادئ كالأدوية تُعطى لتلائم الكيان الذي يناسبها، وهناك مبادئ

كثيرة يمكن أن يتعلق بها الإنسان، وهناك ديانات كثيرة وفنون كثيرة، ولكن كل ذلك لا يدل سوى على أن الهوة موجودة، والإنسان ضائع فيها.

وكاد الزبد يتطاير من شفتيه ويتبدى على وجهه الشحوب والإنهاك والاصفرار تدريجياً فقالت ريتا:

– ولكن أين الدرب الذي ينقذك ولمْ لا تسير فيه؟

فخفضَ رأسه وهو يرتجف، وشعر به ثقيلاً غير محتمل، ولكن كلمات ريتا هبَّتْ عليه كعطر انتشر فجأةً فتنبه، ووجدها ترنو إليه بعطف لم يتوقعه، فعاد يهذي: سمر.. سمر.. وتراءت له الأرجوحة وشجرة الأكاسيا، وغدا ذاهلاً من جديد، فأعادت عليه فأجاب بصوت واهن يشبه الشحوب الذي تبدى عليه:

– منذ زمن.. منذ خمس سنوات، وأنا أسير في درب غريب حزين طويل، على جانبيه أشجار شتائية كئيبة عارية، وفوقه غيم يلقي عتمة تقبض الصدر، سلكته ولا أزال حتى اليوم، لقد قصفته الرعود واشتدت فوقه البروق ثم صعدت الشمس وبعدها هطل المطر ثم الثلوج ولا أزال أسير وأسير. لقد ضحكت وصرخت وبكيت وتحدثت مع نفسي ومع السحاب ومع البرد ومع الضباب، لقد لوحتني الرياح وأمضّني الجوع وسال مني العرق، لقد ابتسمت للشمس وسخرت من القمر، لقد صحت حتى اضطرب المدى ولكن أحداً من نهاية الطريق لم يجبني. لم أعثر سوى على بقايا خطى وجماجم وعظام لأناس قبلي سلكوا الدرب وماتوا وهم يرددون: لا شيء إلا العدم!

فقال زاهر هازاً برأسه:

– آه.. كم كنتَ متزناً في ذلك اليوم البعيد الذي التقيتك فيه لأول مرة في موسكو، وكم كان عظيماً فرحي فيك.

– نعم لقد كنت إنساناً من لحم ودم، أما الآن فلم أعد سوى هوام!

وغدا وجهه أكثر ذبولاً، ونظر إليها بعينين تائهتين مرددتين: يا سوداء العينين! يا طفلة منسية قرب شجرة أكاسيا، يا أمل الحمام في الزمن الضائع، أين المرجوحة إذن.. هل تحولتْ أيضاً إلى هوام؟ وأشاحت بوجهها عن عينيه المحرقتين، فاتجه نحو الباب، وحين أصبح في الطريق صدم إمرأة تجر طفلاً صغيراً على زحافة، وراح

يخبو في الثلج، عابراً الجسر باتجاه الوادي. هل ثمة مشهد بديع أكثر من ثلج يهطل فوق نهر؟. ومع ذلك كم من الكآبة شاعت في نفسه بسبب من ذلك، كانت الندفات تتساقط على صفحته وتتغلغل في المياه، وسرح بصره على امتداد بياض الأراضي الروسية: ماذا أفعل أنا على هذه الأرض؟، راح يهذي، لماذا جِئْتَ بي إلى هنا؟ يا من أطلقتني على دروب ملؤها الضياع، هلا أخبرتني أين أتوجه؟ وذاهب بي إلى أين؟ وتراءى له تابوت تِمبو وهو يُنزل في القبر الموحل، وقد ملأ المطر ثلث القبر... ما فائدة الذهاب إلى المشفى إذن ومنجل الموت مُشهرٌ في وجهي لا محالة؟ ومتى الوداع الأخير؟ متى أودع أرض الأسرار الغامضة التي جعلتْ القلب كسيراً؟ متى تشرق في وجهي الشمس للمرة الأخيرة، ويبتسم لي القمر ابتسامة الوداع، ثم ينطفئ آخر نجم، وتسود العتمة سديم العذاب اللامجدي، متى.. متى؟ لستُ سوى نبتة صارعت الموت طويلاً في حقل سام. وداعاً يا سمر.. يا حباً لم تكتشف الأرض بعد غرابته، وداعاً يا فلسطين يا أغنية حزينة على شاطئ البحر... كثيراً ما كان يخيل إلي أنني سأموت شاباً، لم يكن هذا يُخيفني ولا يفرحني، يا أخواتي الحبيبات، أيتها الديدان، هلاَّ فتحتُنَّ أذرعكن لاستقبالي، إنني أحنُّ لمعانقة التراب والأرضُ والطبيعة التي أنجبتني، أحن إلى السلام الحقيقي الأخير، ولكن حتى سواد الموت لا يأتي حين تطلبه، فهو يأبى إلا أن تزهق خلاياي مئات الأمراض أولاً، كم أحببتكَ يا بلد الرايات الحمر! وكم كرهتك، نعم لن يسود بعد الآن سوى الطغيان، وسيغرق الفقراء في بحر من دموعهم، ولكن ما العمل يا زاهر؟: إذا كان كل شيء حتمياً.. وأبعده أحد المارة عن طريقه فشعر بأن الأشياء لا زالت تدور منذ الصباح فسار حتى أنهكت عينيه الريح، ووصل إلى وادي الثلوج، ولكن ما إن لمح تمثال شِفتشنكو حتى انفجرت إستغاثات بنات آوى من أسفل الوادي، وندَّت إحداها من قربه فامتلأ الوادي بالرعب، أي شيء أشد رهبةً من ذلك العويل العميق، وكان الضباب يتكاثف، فلا يبقى في أغوار الوادي غير الصدى والرعب والأشباح، لقد هزت تلك الأصوات الجريحة أعماق كيانه، فدخل المشفى يتهادى، فوجد أمامه ممرضاً حجري الملامح، تسح البيروقراطية من شاربيه، نظر إليه كممسوس ثم أخذ بطاقته وأشار إليه لكي يجلس، فوجد نفسه وحيداً، إلا من صراخ متقطع لأحد المرضى في إحدى الغرف،

وطـال انتظـاره، وقد أثـار استغرابه أن أحداً غيره لـم يكـن موجـوداً وكانـت الحجـرات صامتة والصالة معتمة كئيبة. وأخيراً خرج المريض الوحيد مسرعاً مندفعاً تاركاً وراءه الطبيبة في حالة مقت شديد، فعندما جلس نضال أمامها، ألفى نفسه أهدأ ومسيطراً على نفسه أكثر منها بكثير، فلم يسلم من هياجها إذ أجابته صارخة بأنه يظن نفسه مريضاً وهو ليس كذلك، وأنه لا يمكن أن تنشأ أمراض نفسية في المجتمع السوفيتي، فوجد نفسه أضعف بكثير من أن يبوح لها عن احتمال إصابته بالإيدز، وجعل هو يُهدئ من عصبيتها، وخرج بعلبة مهدئ وحيدة على أن يتناول قرصاً واحداً يومياً، ولكنه ما إن خرج حتى تجرع ثلاثة على الفور، وصدمته من جديد صيحات بنات آوى تطاول عنان السماء واختلطت مع نباح كلاب ضارية تعوي من البرد، فازداد ضيق أنفاسه، وتبدى له تمثال الشاعر الأوكراني مارداً من الجحيم، ولكن لم يدم كل ذلك طويلاً، إذ سرعان ما تراءت له بعد الجرعة المهدئة الثلوج في سكينة حالمة، وذُهل لهذا الانسجام والهدوء الشامل الذي يغشى الأشياء، إنه سعيد جد سعيد، وتراءت له حوريات النهر من بعيد يخرجن، يتسلقن الصخور ويتمددن على شاطئ الثلج، وبرز في نفسه حب ورغبة في تناسي عيوب الناس وأخطائهم فأخذ يعاملهم كطفل، وهمَّ بملاطفة أحد ألأولاد برقة جعلت والدته تُذهل لذلك الكمال الذي تبدى عليه، وكان الثلج يتساقط نتفاً هائمة بطيئة لا مبالية أوحت إليه أن الحياة أرق، وأن العالم جديد مسحور، والأرض جديرة بالعيش، سار على الضفة الثلجية، وانسابت نظراته على النهر الشاحب، والسماء الرمادية، ورأى أمواجه تتلاحق بانسياب أنيق، تتداخل فيما بينها بعذوبة، وترتطم برفق في حجار الشاطئ. يا جنة طفولتي.. أين الماضي إذن؟.. راح يسأل النهر.. أين ذراعك يا سمر؟.. لنسير سويةً على ضفة الريح. كانت الأمواج في ذلك المشهد تنطق بأشياء خيالية لم يفهمها هو، وفي عبورها في جوف الضباب كانت تهذي بأمور عجيبة، سار وحيداً على الضفة، لا أصدقاء، لا أحباء، لا عابر سبيل، أي سر تُخبيء أيها النهر، يعود فيسأله، يزيد النهر من سرعته، وتستمر أمواجه تصادم حجارة الشاطئ وتتكسر عندها.. تمهلي قليلاً أيتها المياه!.. تمضي كالغجرية لا تبغي شيئاً غير الطريق، وتتركه وحيداً على الرصيف يخط بأصابعه على الثلج: سمر.. سمر..

------- ٣ ---------------------------------------

مر أسبوع آخر ولم تعد ناتاشا، مما زاد يقين الثلاثة من أنها مصابة، وزاد من زعزعة أعصاب نضال. وكمن سار طويلاً بين الأحراش والمزارع حتى جفف القيظ حلقه، وفجأةً لمح في الطريق شجرة مثمرة فراح يقطف منها، هكذا أخذ نضال يتجرع حبوب المخدر دون ضابط، وتحولت السعادة والهدوء إلى خمول وعينين جامدتين، ولا أحد يعلم كيف تذكر نضال ذلك الصباح ألبوم ناتاشا ألكسندروفنا، واتَّقد ذهنه فبرق اسم آخر غير تِمبو كلن مدوناً هناك: شامِل الداغستاني، فانطلق سريعاً إلى مبنى طلبة كلية الصيدلة. تُرى كيف حال هذا الشاب؟ هل يدري بشيء مما هو فيه؟ هل ضاجعها قبل تِمبو أم بعده؟ راح يتساءل وعندما وصل كان معطفه قد امتلأ بالثلج، وكان المبنى حديثاً مؤلفاً من اثنين وعشرين طابقاً، يقطن كل حجرة اثنان فقط، وسأل الحاجب بقنوط فردَّ بأنه منذ فترة لم يره، ولكنه يذكر أنه كان يقطن مع صديق له من داغستان أيضاً، اسمه عبد الغفار في الطابق التاسع، فولج المصعد، ثم أخذ يقرأ الأسماء على أبواب الحجرات، وطرق باباً كُتب عليه عبد الغفار خوجانوف، فخرج له شاب أسمر الوجه، أسود الشعر والعينين:

- هل أنت شامِل؟

لقد نسي التحية، أمام شاب آسيوي المزاج، ولكن عينيه الكامدتين جعلتا الآخر غير مهتم.

- شامل!.. لا أعرف أحداً بهذا الاسم!

- حسناً هل أنت عبد الغفار؟

من جديد بدا كآمر لا يعنيه محدثه، كآمر عجيب وغامض ومسكين.

- لا بأس لقد ذهب لبيع الزجاجات الفارغة، أنا محمود شريكه في الغرفة، تفضل سيأتي حالاً، يا إلهي لماذا تسير دون مظلة؟. حسنا انزع قبعتك ومعطفك، كنتُ ذاهباً إلى المطبخ لأضع العجين في الفرن! إنني أُحَضر أرغفة داغستانية، انظر عبد الغفار هناك، سآتي حالاً....

وأشار بيده عبر النافذة ثم انطلق، كان ثمة طابور طويل أمام كوة زجاجية، واستطاع تمييز العجوز ذا الساق المبتورة أمام عبد الغفار وبيده كثير من الزجاجات، وكان الثلج يهطل فوق الجميع.

أنهى بطريقة ميتة رخوة تعليق معطفه وقبعته وتهاوى على الأريكة يتأمل الغرفة المؤثثة على الطراز الشرقي، بساط فارسي، أغطية للأرائك رُسم عليها صقور وخيول وفرسان، مساند موشحة بمختلف الرموز والألوان، إبريق عربي وُضع في زاوية، ونارنجيلة في الركن الآخر فوق تلفاز صغير يبث بصوت خفيض، أما على الجدران فعُلقت ثلاث لوحات إحداها لفارس على صهوة جواده يرتدي قبعة داغستانية وجلباباً وحذاءً فلوكلورياً ملتوياً من الأمام، وأخرى تُمثل مأذنة ومسجداً على قمة جبل، وثالثة لامرأة أفارية.[١] بعباءة وقلنسوة مطرزتين بنقوش إسلامية، أما الجدار الرابع فحوى سيفاً طويلاً فضي اللون كُتب أسفله:

الشعوب الصغيرة في حاجة إلى خناجر كبيرة

شامِل [٢]

وعاد محمود سريعاً ليتأمل الزائر الغريب، فما أن لمحه الآخر حتى ألقى في وجهه السؤال الثالث:

- أليس شامل من يشارك عبد الغفار الغرفة؟
- لم أسمع بهذا الاسم.. أنا هنا منذ بداية العام الدراسي.

أرخى نضال على الطابور عينين يائستين وغرق في الصمت!

وجلس أمامه وقال بهدوء:

- أرجوك هلاَّ عرفتني بنفسك؟
- نضال.. فلسطيني.

فسأله بلهفة:

- عربي؟

---

١ – أفاريا أكبر القوميات الداغستانية .

٢ – كانت السلطة الستالينية قد اعتبرت شامل عميلاً تركياً انكليزياً ولكن بريجينيف أعاد إليه الاعتبار ، وأسبغ على حركته طابعاً تحررياً وطنياً ضد محاولات القيصر احتلال داغستان بين عامي ١٨٣٤ – ١٨٥٩ حيث سقطت أخيراً .

فأحنى نضال رأساً ثقيلاً غير مكترث، ثم عاد ينظر إليه كأنه لا يراه.

- مسلم.. أليس كذلك؟
- أجل.

ولكن ما به لا يحمل أية شرارة في قلبه! تساءل محمود الذي يعتبر العرب من المسلمين الأحرار، لم يتعرض إيمانهم لردع شيوعي.

- حسناً.. أنا أيضاً آفاري مسلم، إن الداغستانيين مسلمون ألا تعلم ذلك؟

ووقف على قدميه ومد يده إليه مصافحاً، ولكن كف نضال بالكاد تحركت، فقبض عليها الآخر بشدة، وعاد نضال يلوذ بالصمت لا يعنيه سوى عودة عبد الغفار، وكان محمود يتساءل ما به؟ لا يليق مثل هذا بمسلم! واحتار كيف يبدأ الكلام فقال:

- لا توجد سيرة في مبنى الطلبة الآن سوى الحديث عن الإيدز المتفشي بين الروسيات، أرأيت أي جحيم تردت به مثل هذه الحضارة؟ هناك حديث شريف حفظته عن أجدادي لرسولنا الكريم إذ قال: « وما ظهرت فاحشة في قوم إلا سلط الله عليهم الموت ».

بدأ يختنق، ووجهه تُغضنه المرارة، ودُهش الآخر لنظراته المحيرة، ووجد عينيه تتوقفان على قول شامِل فتشجع وهتف:

- هل تعرف عن حياة شامِل؟
- أجل قرأت أشعار رسول حمزاتوف.
- ولكن حمزاتوف تقلَّبَ في رأيه حول شامِل تقلُّب الحكومة السوفيتية، ويظهر ندمه الأخير حين يتراءى إليه شامل يخاطبه:

قد تكون غزواتي غير ضرورية اليوم
لكنها كانت في ذلك العهد تحمي جبالك
أرى سلاحي قد شاخ الآن
لكن هذا الخنجر الحاد خدم الحرية

ولكن شاعر داغستان ما زال شيوعياً، وما نزال نحن الداغستانيين في حيرة، هل نُخلص لعقيدتنا الإسلامية؟ ولكن كما ترى نُرسَل نحن الجبليين ذوي اللحى الطويلة

والأسمال البالية إلى مدن عظيمة لم نكن نحلم بها، كلينينغراد وموسكو وكييف حيث نتعلم مجاناً ونتلقى مرتبات ومساكن وقد أدخل الروس العلم والطبابة المجانية إلى كل قرية ومدينة في داغستان، وأصبح كتَّابنا المسلمون أعظم من الأدباء الروس أنفسهم، إن أنظار الجميع مشدودة الآن نحو جنكيز إيتماتوف ومع ذلك فإن شيئاً كوخز الضمير يظل يلاحقنا، ونظل دائمي الكراهية للروس، تأكد أنه لا شيء يمكنه أن يُزيح الديانة الإسلامية من صدورنا، لا الشيوعية ولا أي شيء آخر، ولكن أيها العربي ما رأيك أنت مثلاً في مثل هذا؟

ولم يجامله نضال أو يُجب بحرف كان منهكاً راغباً أكثر في التمدد على الأريكة والنوم وكان الآخر قد بدأ يحنق، ولكن عندما تأمل شحوبه الممزوج بشيب مبكر يلف فروة رأسه رقَّت قسماته من جديد وأكمل:

– عندنا في داغستان أربعون لغة رغم أن عدد السكان لا يتجاوز الأربعة ملايين، ويقال إن الله عندما وزع اللغات على العالم، كانت داغستان محطته الأخيرة وقد بقي لديه الكثير من اللغات فنثرها كلها فوق جبالنا، والمهم أن تلك القوميات بأجمعها غير راضية عن الروس، وخصوصاً المعمرين منا، وبالمناسبة، يوجد في داغستان مُعمرون لا تجد لهم مثيلاً في العالم كله، إنك تجد الكثيرين ممن أوغلوا في العمر حتى تجاوزت أعمارهم المائة والعشرين أو المائة والثلاثين يذهبون على بغالهم كل يوم ليحتطبوا، وأكبر رجل في العالم موجود عندنا وعمره ١٥٦ عاماً، والخلاصة أنهم لا ينصحوننا أبداً بملاقاة الشيوعيين. إنني بالذات ضائع أكثر من غيري، إنني احترم الروس ولكنني أحب شامِل.

فنطق نضال بصوت هامد عميق محزون:

– قال رسول حمزاتوف إن ثلاثة غادروا داغستان، الأول طلباً للثروة، والثاني سعياً وراء المجد، والثالث بحثاً عن الحقيقة، وقد حقق الأولان هدفيهما وعادا إلى داغستان فخورين، أما الثالث فكُتب عليه أن يبقى في الطريق.

فذُعر محمود لتلك النبرة الكئيبة التي انسابت بها الكلمات الأخيرة فغاصت في قلبه مباشرةً، لقد لحظ في وجهه نشازاً مريباً كأنه يضيع أو يغرق فأكمل محاولاً إخراجه من ذهوله مازحاً:

- يقال إن داغستانياً عمره ١٥٠ عاماً خطب فتاة عمرها ١٤٠ عاماً ولكن الزواج لم يتم! أتعرف لماذا؟.. أتعرف؟

ولكن نضال ظلَّ في غيبوبة.. وظلت عيناه تحدقان به كأنهما تنتظران أن يستمر.

- حسناً لأن والديهما غير موافقين!

- ولم يبتسم.. ولكن عروقه ابتردت قليلاً فحرك وجهه باتجاه الطابور، كان عبد الغفار يتقدم، والمظلات غدت بيضاء، واحتار محمود أمام هذا القنوط الغريب فقفز هارباً قائلاً بمرح:

- حسناً لابد أن الأرغفة قد نضجت.

وتركه وحيداً أمام التلفاز الذي كان يبث ندوة لمناقشة كلام المستشار حول «لماذا أصبحنا على شفا الإفلاس؟»، ولم يكن نضال يسمع أو يفهم، أو لعله أصغى ولكنه لم يهتم لأن معظم ما قيل كان معروفاً لديه: إن أكثرية مصانعنا مشاريع خاسرة وعجزها يُغطى دائماً من قبل الدولة، وما ذلك إلا بسبب استخدامها الزائد للأيدي العاملة، صحيح أردنا منح فرص العمل للجميع، صحيح أننا لا نعاني من البطالة كما هو الحال في الغرب ولكن إعطاء الضمان والأمان المطلق للعامل أدى إلى جودة قليلة في الإنتاج ونسبة كبيرة في التلف...

وحاول نضال التمدد على الأريكة، إن جرعات كبيرة من المخدر قد تناول في الصباح، ولكنه لحظ عبد الغفار وقد وصل إلى الكوة فبقي مسترخياً على حاله يرنو بعينين غائبتين إلى التلفاز الذي أكمل: ففي ظل الكساد الذي بدأ يتفشى بالأخص منذ بداية حكم بريجينيف أخذ الإنفاق العسكري يزداد بصورة مرعبة، إن الأعوام تلك التي ينحدر فيها اقتصادنا كان اقتصاد الدول الغربية يطاول عنان السماء، وهكذا وكما صرَّح المستشار نحن الآن غير قادرين على مواجهة حرب النجوم وهذا لم يعد سراً........

ودخل الاثنان سويةً، وكان محمود فرحاً وبيده أرغفة دائرية طازجة لم يرَ مثلها نضال منذ خمس سنوات، وكما لا يفعل الروس مدَّ إليه إحداها. وأثناء مضغه أحس أن صقيع الغربة يتبدد وأن الخبز الشرقي الساخن يُرسل على وجهه توردا طفولياً

وحنيناً، ولكن لم يطل مكوثه طويلاً بعد ذلك إذ فاجأه عبد الغفار أن شامِل قد تخرج الصيف الماضي وعاد إلى داغستان، ولا يعرف له أي عنوان سوى مركز العاصمة « ما ختشكلا ».

وجد نضال نفسه تحت الثلج من جديد: لن أقطع ألف ميل إلى القفقاس لأجده بعد ذلك قد عُين في الأورال.. آه كلا لن يُرسل بي الجنون إلى تلك الأصقاع، ردد في نفسه وهو يجتاز جسر كيروف ثم عَبَرَ شارع الكمسمول ووَصَلَ إلى غرفة ناتاشا، وحاول جاهداً الدخول من النافذة ولكن عوارضها لم تتزحزح، إنه يريد أسماء جديدة من الألبوم وإيضاحات جديدة، وجمَّد البرد يديه، وكان النهر يشهد عاصفة من أعنف رياح البلدة المسعورة المحملة بالثلج المتطاير، إن مدينة الاصطياف السحرية غدت مروِعة، همجية الزوابع والرياح، تنقضُّ عليها الثلوج من الجهات الأربع، ولم تكن أيام نضال التالية أقل رعباً فقد نَفَذَتْ علبة المهدئ، وعندما عاد إلى الطبيبة رفضت أن تعطيه أخرى، ولم تصدق عندما أباح لها متأخراً أنه يخشى من أن يكون مصاباً بالإيدز. فأخذ ينتابه شعور غريب بدون أقراص الخدر بأن الحياة ليست حالمة أو سهلة على الإطلاق، أصبح العالم بالنسبة له أشبه بصحراء، وكان يحسُّ أنه مجهد دائماً ويلهث لمجرد قيامه بمجهود قليل، وصار يتكلم بسرعة ليبدو كما كان رصيناً مفكراً كأنه غير قادر على استيعاب وجوده أو لم شمل حواسه، فلا يدري أحياناً إن كانت الأرض تترنح تحته أم هو الذي يرتج! وحدث ارتجاف في أطرافه وأصابعه، وأخذت تهاجمه نوبات طويلة من الذعر وقد تشقق قلبه من الحيرة واليأس.

-- ٤ ------

ظل الثلج يتساقط فوق المدينة، لقد بدا وكأنه عازم على أن يملأ الأراضي الروسية بأكملها، وكان الروس لا ينقطعون عن فتح دروب ضيقة أمام بيوتهم تربطهم بالشوارع الرئيسية فرحين متهللي القلوب، ولكن مبنى الطلبة كان يغرق في الكآبة أكثر فأكثر، إن ذلك يحدث كل عام، عندما يحبس البرد الطلبة داخل الغرف المكتظة فلا يبقى سوى التلاسن وشرب الكحول والدرس النادر، أما هذا الشتاء فقد بلغ التخبط أوجه، شبح الإيدز يهزأ بأعصاب الجميع، يذرو الشكوك في كل الوجوه.الكلمات يصحبها دم يفور، وعروق تغلي، وردهات المبنى تردد صراخاً غامضاً مكتوماً.

فيليب الوحيد بدا مثيراً للدهشة كما لم يكن في يوم من الأيام، لقد خرج من عزلته منذ أن عاد من موسكو، فلم يترك غرفة في مبنى الطلبة لم يدخلها مُبشراً متحمساً سعيداً رغم الهزء الذي يلقاه من الجميع، لقد غيرَ النشاط حياته منذ ذلك اليوم وسيطر عليه فرح وطاقة لم يعهدهما... إنه الآن يقصد غرفة مراد النيتشوي، بعد عودته من منزل تاتانيا ستيبانوفنا، مراد الذي جعل ذهوله الشديد والتفكير العميق المستمر قاطني الغرفة يطلقون عليه « لومانوسوف »[١]، دون أن يأبه بهم، إنه الآن في عالم مختلف، لقد ألفاه فيليب وحيداً وراء مرسمه، خياله أكثر اشتعالاً ومزاجه أكثر طرباً، تبعث اللوحة في نفسه قلقاً وسروراً خفياً وتَعِدُ روحه بإغراءات لا تُحصى. وألقى تحية ولكن أي جواب لم يأته، فجلس على أحد الأسرَّة الأربعة وراحت نظراته تمسح أرجاء الغرفة وردد:

- أحقاً لايرعبك ما أنت فيه؟

فأجاب وريشته لا تفارق المرسم:

- لم تكن حياتي سوى قصيدة، يهمني أن تكون شجية وليست طويلة.
- ولم يتبق سوى سنة أو سنتين، أيعقل أن لا شيء يضنيك؟

---

١ - كبير علماء القرن التاسع عشر.

- إن لحظة واحدة هي أبدية كاملة إذا عرفنا كيف نعيشها، فما بالك وأنت تقول إنه بقي سنة أو سنتان! إنني الآن سعيد كما أكن في يوم من الأيام.
- لا أستطيع أن أصدق أنك غير خائف من الموت نفسه!
- على العكس لقد نبهَني إلى أغوار من الجمال لم أكن أعلم أنها مختفية في نفسي أرسلَتْ بي إلى فرح أعلى، إنني أنشر الآن أجنحتي لبلوغ أعلى ذروة، قبل أن أتحول ظافراً إلى رماد، تشع بعدها لوحتي من دهر إلى دهر.
- نعم.. من العجيب أن لا تبدو بائساً أبداً!
- السعادة لمتسلق القمم، لشديد الإرادة، وهي تتناسب عكساً مع الخمول.
- ولكن أمراض نقص المناعة ستهشم جسدك كما لا يفعل الجذام.
- ليس لجسدي أدنى قيمة، إنني آكل ثم أذهب إلى المرحاض،وأكرر ذلك أبد الدهر قبل أن أتوارى في القبور، ليست هناك أية اهمية لنفسي، ولكن أنظر إلى هذه اللوحة أليست تملك قيمة؟

ولكن فيليب لم ينظر إلى شيء.

- ألا يزال الهوى مسيطراً عليك؟
- بل قل أما يزال القلب يخفق؟

فأطرق يائساً قائلاً:

- إلى متى.. إلى متى؟ كل شيء ينهار.
- سأظل أدفع موهبتي إلى ما قبل الجنون بقليل.
- إنني أدعوك للمرة الأخيرة للتوبة، الحب يجب أن يكون لله وليس للجماد.
- إنني لا أحب الرسم، إنني أنشد وجه المطلق المتواري وراء أغوار اللوحة.
- كم أضاعكَ الجنس؟
- بل كم أضاعني الحرمان! كم أرجحني بين الحب العذري والدعارة! لأن الطاقات الجنسية المكبوتة في الماضي، ستنفجر ذات يوم لا محالة، وتثأر لنفسها من الظلم الطويل الذي تعرضَتْ له، وتجرف معها كل القيم التي بُنيت على تجاهلها وتغييبها واحتقارها. وهذا ما حصل معك أيضاً ذات يوم.
- ذكرتني بما قالته عنك تاتانيا ستيبانوفنا.

– هل استعدت مسروقاتك؟

– أجل.

– وطبعاً دعوتها إلى الإيمان!

– أجل.. ولكنها قالت لي إنها بحاجة إلى نقود لتربي ولدها وليس إلى الإيمان.

– حسناً ماذا تحدثَتْ عني؟

– قالت إنك طالما شغفتها بالحديث عن مراهقتك وعن فتياتك الصغيرات وبحثك الطويل عن حب سماوي لا تشوبه شائبة، ثم تكتشف أنك زرت مواخير المدينة حتى أعمق سراديبها، وقالت إنك تشبه بذلك الشبان الذين يأتون إلى روسيا من تركستان أو جورجيا أو باقي الجمهوريات السوفيتية الآسيوية والذين تعرضوا لكبت قديم مروع.

– لا أكتمك أنه رسى في أعماق باطني أنا أيضاً أن الجنس هو دنس، ولولا نيتشه لما تحررت من ذلك تدريجياً، كنت أنظر إلى الفتاة كأنها أيقونة، أو كما ينظر امرؤٌ حائر إلى غسق ضائع عند التلال، كنت أتجنب أي كلام أو هوى يقلل من قدسية نظراتي، لم أكن أبتعد بداعي التكبر، بل باسم الحب عينه، ليتسنى لي يوماً أن أعطي روحي بكليتها للفتاة التي اختارها قلبي، وكان هذا يمهد لانبثاق حب عميق غيور حار نقي لا يعرفه أحد غيري في العالم. إن ذاكرتي ترفرف الآن بجنون فوق مواقع سعادتي في تلك المراهقة المرحة باحثة عن كل هتفة حرية، أو حنين أزلي لحب، لتمتص كل ذلك لوحتي.

وتناثرت حفنة من الثلج على زجاج النافذة، فأطل مراد من هناك كان ثمة صِبية يلعبون، بينما قام فيليب ليرى ما سر هذه اللوحة، ولم يَعُد الآخر إلى المرسم، بل وضع قرص الألوان على المنضدة وتمدد على السرير كئيباً، إلا أن فرحاً خفياً كان يسطع من خلال الكآبة، لقد امتلأ قلبه بحزن لذيذ، كأنه يرى الكمال على مرمى حجر، وبنفس الوقت أبعد من السماء، أجل كان ضياءً سامياً يغمر قلبه، وقرأ على وجه فيليب كأنه يقول باللوحة المدهشة:

– حسناً ماذا تريد من هذه اللوحة أن تُعبر؟

– قول دانتي « إلى أولئك الفتيات اللواتي يدركن جوهر الحب ».. هكذا كانت نظراتي تنسكب عليهن في تلك المراهقة الغربية، كانت عيناي ينبوعاً من حب غريب

متدفق، وعندما وصلت إلى هنا أخذت أجرب ذلك مع الروسيات، وكانت نظراتي تستعصي عليهن فلا يفهمن ماذا أريد، وعندما كن يقبلن علي أفر، فيتعجبن ويرينني غريباً، وكل ما كنت أريده هو الحب وليس الفتاة، أما الجنس فكان ينتظرني في المواخير ولم أكن مستعجلاً. وكان بعضهن يرينني طريفاً سامياً ولا يقتربن مني، يبتسمن ويسترقن النظر إلي، وبعضهن تُسبب نظراتي لهن التثاؤب، تُرى لماذا كن يفعلن ذلك يافيليب، لقد لاحظت هذا كثيراً، كثيراً جداً، أتدري السبب؟

– ربما عضلات وجوههن تسترخي عندما يرين الهدوء الذي يلف وجهك، ربما كن متعبات، لست أدري.

– نعم.. كانت نظراتي هذه مثاراً لسخرية الروسيات في كثير من الأحيان.. ولفترة طويلة، وبدلاً من الابتعاد نهائياً عنها، كنت خلال السنين الخمس التي مرت أصقلها أجعلها تحس أنني مازلت على الأرض بالرغم من أنني أنظر إليها كأنه بيننا رواية حب عظيمة قديمة، محولاً اعتبارها مخلوقاً سماوياً في اتجاه أنه تقدير كبير لسمو المحبة التي تبدأ من أول نظرة بين صبية وشاب غير جاحد يعرف جيداً قيمة المحب، وأخذت أجد أن نظراتي بدأت تُقنع بعض الفتيات وتروي ظمأهن للمديح والإعجاب، وفي الأيام الأخيرة أصبحت أتقن هذا في صمت ومهابة وأجعلها ممزوجة بلغز سوف تفكر به.من أنا؟ من أين أتيت أنا؟.. وإذا تكلمتُ فبعدة ألفاظ فقط تحمل نبرتي فيها بساطة شاعر ومطبقاً على لغزي لا أكشفه، وأختصر حديثاً طويلاً بعبارة واحدة معبرة جداً ودقيقة الألفاظ، تجعلها لا تتكلم ثانيةً حفاظاً على احترامي الشديد لها بعدم السماح لنفسي بدخول حديث طويل معها من أول لقاء. وعبارتي القصيرة أبعدَتْ بعض الشكوك التي كانت تساورها بأنني قد أكون مجنوناً، وجَعَلَتْها تفكر بأنه غير مطلوب منها شيْ وغير مقيدة بأية مجاملة اتجاهي، ولا حتى النظر إلى وجهي فأنا مجرد أسترق النظر إلى وجهها كأنها مجرد لوحة أمامي، ولكن مع ذلك فإن أي حب حقيقي لن ينبت، لأنه ليس بهذه الطريقة قد حَلُمَتْ أن يهبط عليها الحب، كما أنه لن يستهوينا نحن مزاجهن، من العبث البحث عن حب حقيقي خارج الوطن لأن استجابتهن أيضاً لن تلقَ صدىً في صدورنا.

– تقول تاتانيا أنك لم تصل إلى ذلك النقاء الكامل الذي ترجوه في الحب حتى في الوطن.

– كانت نظراتي منذ البداية خشوعاً حزيناً أمام الحب لعاشق يائس من أن الحب يسكن على الأرض، لذلك لم أطمع سوى بعلاقة حب صامتة وبلا أمل، وكان ذلك يشعرني أنني إنسان تضطرب مياهه وتزبد بعد أن كنت بحيرة شاحبة بلا موج. وكانت أصفى اللحظات تنتابني عندما أذهب لأفتش عن حب جديد، وكان ذلك غالباً ما يحدث في تشرين، لأن جنون الحر يكون قد تبدد، ونفسي غدت رقيقة وحالمة مثل الريح وأوراق الشجر، مثل ضباب الطرقات وندى الفجر، فإذا نظرَتْ إحداهن إلي وأحبتني وبدوت في عينيها طيف ملاك، أتساءل فجأةً.. هل طرق الأبواب الخريف! هل ابتدأ فصل الحب؟ وتغشى نظراتي صور حبيبة، وتمتلئ عيناي بفرح عميق كأن فيهما نداء يوحي لها بأن الحب الحقيقي الذي طالما قرأَتْ عنه لم يعد حلماً ها هو تبدى لها أخيراً، وعندما تبدأ بالارتعاش يجتاحني دوار حب عنيف ويعود إلي الأمل أن تتحول الأرض إلى جنة، كان هناك الأمل ولم يكن من مُخَلِّصْ سوى الحب، حتى وإن في مرة قادمة لم تبتسم أو تنظر إلي فإن مجرد مرورها بجانبي هو الحلم الذي أصبحْتُ أنتظره حتى تدمع عيناي، لقد غدا مجرد طيفها يكفي. فإذا ذات يوم لمحتها على رصيف، أو خارجة من المدرسة والتفتَتْ إلي فإن ذلك يُثير في عيني حنيناً غريباً يسيل حالما ترتعش في مخيلتي فكرة الحب، وكأن عيني تقولان إن رجفة القلب تلك لأنني منتظر وموعود منذ أمد بعيد بهذا الحلم وها هو تدفق نحوي كالقدر، فعندها لن تلبث أن تسقط نظراتها علي مرة بعد مرة، ويبدأ النور يتدفق إلى وجهها.. كأن روحها قد نهضت إلى سعادة أعلى وهي تفكر « ثمة أمل على الأرض.. ثمة ملائكة بين الناس، لقد بتُّ أعلم ما هو الحب.. كم أنا سعيدة »، وتبدأ عيناها تومضان في ملامحي بوجه أشد صفاء فأقرأ فيهما الحب كمن يقرأ في كتاب، أقول عندما يبدأ ذلك عندها، تبدأ تلفني حالة قلق عجيبة وأختفي ناظراً إليها للمرة الأخيرة كأنني أقول: لا جدوى.. لا جدوى، وأترك الحب ذكرى خوفاً من أن يصل بي إلى حلقة الجنون أو يندثر تحت ركام من اللغو... نعم، كما قالت تاتانيا ستيبانوفنا لم يكتمل معي هلال الحب.

- ولكن عن أي شيء تتحدث.. أكاد لا أفهم! إنها عاجلاً أم آجلاً ستدعوك للخطوبة ثم للزواج!

- وسأغني لها:

لا تجي اليوم

ولا تجي بكرا

وسترد علي « لِمَ؟ » وسأجيب:

خوفي لتضيعني

بالعيد وما تئشعني

وستقول « إذن متى آتي؟ » وسأغني:

تعا لمَّا بينده الحنين

موسم الناس المنسيين

وسترد « بدون عيد؟.. لوحدنا؟ » وسأجيب:

نحنا لِنا ورق الخريف

العم بيدهب مراكب الرصيف...

فقاطعه:

- ستفر منك قبل أن تكمل هذا الجنون!

- وسأنشدها قبل أن تختفي:

حلفتك يا حبيبي

لا تنسى يا حبيبي

لما بتسمع هالغنيِّ

فكر فيِّ.. يا حبيبي

- أرأيت كيف تعبد البشر الفانين بدلاً من الله؟

- إنني لا أهتم للفتاة إن أنظاري معلقة على المطلق المتواري وراء الحب.

- وراء الحب الخطوبة.

– هذا بالذات ما يدعى « سم الحب » إن أية محبة تتلاشى عندما يُنسج بين أشعتها خيط من المصلحة كأن يفكر شاب بفتاة ثرية أو تخاتل الفتاة طمعاً في الزواج.

وقام وأمسك ألوانه وريشته وعاد من جديد وراء المرسم وكأنه لم يعد راغباً في الإكمال، لقد جرح الآخر بشكل ما رومانسيته، وشيئاً فشيئاً عاد الحبور يسرقه ويرتسم على ملامحه ارتعاش خفي كمن يسبر ذكريات مضنية.

وقال فيليب:

– يا للغرابة، مرة أخرى نجد أنفسنا متلاقيين رغم سيرنا على نقيض دربين، انظر، بدلاً من الارتعاش من هواجس الموت يعتريني أنا أيضاً توق وانفعال كأنه ستنبت لي أجنحة للتبشير، إنني أتخيل منذ الآن بطرس وبولس قرب بوابة الجنة منتظرين استقبالي، نعم يا للغرابة ولكن من أين لك ابتسامة الأطفال تلك؟ إنها لا تفارق وجهك!

– ليس بحاجة المرء إلى كرنفال لكي يبتسم، السعادة شلال داخلي لا ينقطع.

– نعم، إنه نفس رأيي ولكن مصدر الشلال منبعان مختلفان، هكذا فكر فيليب ثم سأله:

– أليس دنو الموت سداً في وجه المياه؟

– لم يعد في الموت ما يخيف بعد مجيء نيتشه، لقد تعلمت منه حب المصير رغم كل شيء، وقد قال: ليرسل فكركم وفضيلتكم آخر أشعتهما في احتضاركم كما ترسل الشمس الغاربة آخر أنوارها على الأرض.

------- ه ---------------------------------------

سار النهر تحت ندفات أبدية بطيئة، لا شيء يشبه شحوبه مثل شاب غريب يرتجف على طول الضفة ويدخل في طور مؤلم من الهستريا، لقد بدا نضال الفلسطيني وكأنه يفقد الانتباه إلى الحياة ذاتها، وتختفي لديه القدرة تدريجياً على تجنب ما يضيره، إنه يحتقر ذاته لأنه لم يعد شيوعياً، ولأن السنوات الخمس قد أنسته عذابات أهله وتمزق بلاده، وهو بنفس الوقت خائف من العودة إلى تلك البؤرة التي لن تسربله إلا برداء الخيانة، إنه ضائع منذ زمن ولكن ضربة الإيدز جعلت عقله يترنح، وأصبح اتصاله بالواقع على قدر كبير من الضحالة، فلا يبقى سوى هذيانات تزداد يوماً بعد يوم يكتنفها رعب وهلوسات من يشعر بنفسه أنه يغرق، دون أن يعي كيف يخرج، فقد قادته العزلة إلى فقدان الارتباط بالحياة ذاتها وأيقظته على العزلة القديمة الموخزة في المراحل المبكرة من مراهقته، إن تلقائيته الآن تتبدد ويأتي الموت في أحلامه متخفياً على شكل رمز، ومع ذلك فإن أي زورق في لجة العدم تلك لا يتراءى له، فالشيوعية تضيع ولا مرسم لديه ولا آلهة لا شيء سوى رأسه المعلق فوق مستنقع الهذيان ويد مرفوعة وعينين تستغيثان سمر.. سمر..

شيب الأمواج، السماء الرمادية، التماثيل الباردة، كل شيء كان غريباً مقلقاً مضحكاً، وكان الثلج يتساقط عمودياً بلا ريح، مر بخرائب الكنيسة المهدمة وركامها، ثم انعطف نحو القبور، ثمة شيء جديد الآن في رأسه يريد أن يُنبئ به الإنسانية: « الحقيقة هي أيضاً باطل »!... نهار كالح، سماء كدرة، ضباب يشيع من الأركان المخفية: ليست الحياة سوى خنجر مسدد نصله في وجه المرء، همس وهو يرنو إلى قبر تِمبو، ثم سار بعيداً إلى ذلك الجانب حيث يبدو الفولغا في أعرض مجرى له، ومرت باخرة تشحن سيارات أنيقة وغابت في المدى، وسألته نفسه:

- ستظل وحيداً بلا صديق ولا عزيز ولا أحد يزورك؟

فأجابها:

- أجل.. ألستُ من الخوارج؟

- الخوارج!؟

– أولئك الذين يجدون أنفسهم غريبين لا ينتمون إلى أي طائفة أو نسق هل تذكرتِ؟

– وأخذَتْ تقهقه، فضحك هو أيضاً: الداغستانيون في حيرة.. وغورباتشوف في حيرة.. ولكن زاهر صادق.. لن يسود بعد الشيوعية سوى الطغيان.. ولكن إلى أين أمضي؟ لم يبق ما أصادفه فوق الأراضي المترامية سوى الذئاب.. منذ قديم الأزل وأنا أشعر أنني وحيد على الأرض، أتراني حقاً كذلك؟ لا بل كان بجانبي رفيق ثم اختفى وبقيت وحدي.. آه لماذا تركتني وحيداً يا سمر!؟ المدينة بتماثيلها غدت ورائي، فقط رصيف الموج لا ينتهي... ترامى أمام ناظريه بعيداً جداً جسر غريق في الضباب، فحثَّ قدميه مُبحراً في الذهول، شاطئ مقفر إلا من الصقيع، لا عابر سبيل، لا طفل يركض، لا شيء سوى البرد والأشجار العارية: هل تحولتُ إلى صدى؟ هل تحولتُ إلى سراب..؟ آه ها أنا من جديد أهذي.. أهذي ولا أقصد سوى النسيان.. ولكن حقاً على الشعوب الصغيرة أن تمتلك خناجر كبيرة! وإلا لن يكون علينا سوى اللجوء إلى حل عُقدي.. وضحك مرة ثانية بينما ازداد الثلج عنفا، وحلَّق فوقه سرب من الغربان، ثم ربض على أشجار الضفة العارية. تاهت قدماه طويلاً، وكانت آثارهما سرعان ما تختفي تحت الثلج الغزير، وكان أحياناً يغوص حتى ركبتيه عندما يبتعد عن المياه الرصاصية، وحين بلغ الجسر انعطف نحوه وهو لا يزال يدمدم بما يمليه عليه عقله المكدود، حتى إذا بلغ منتصفه هوى على رأسه السؤال الكبير: من أنا؟.. ولماذا أعيش؟...

كان ثمة صبي يجلس بجوار النافذة في حافلة تمضي على الجسر إلى جهة مجهولة، وقد ظل يتذكر طويلاً أنه عندما كان صغيراً رأى شاباً يُلقي بنفسه في الماء ويتلاشى.

كان النهر يُسرع، والمياه تزداد برودة، وعلى الرصيف وحدة إلهية من الأطيار والشجر العاري وكآبة البرد، أما في البعيد البعيد، وراء العراء الأزلي، فكانت السهوب الثلجية تلامس السماء وتنفث طيوفاً وأشباحاً ودخاناً.

فؤاد اليازجي
fsyazji@hotmail.com

– تمت –

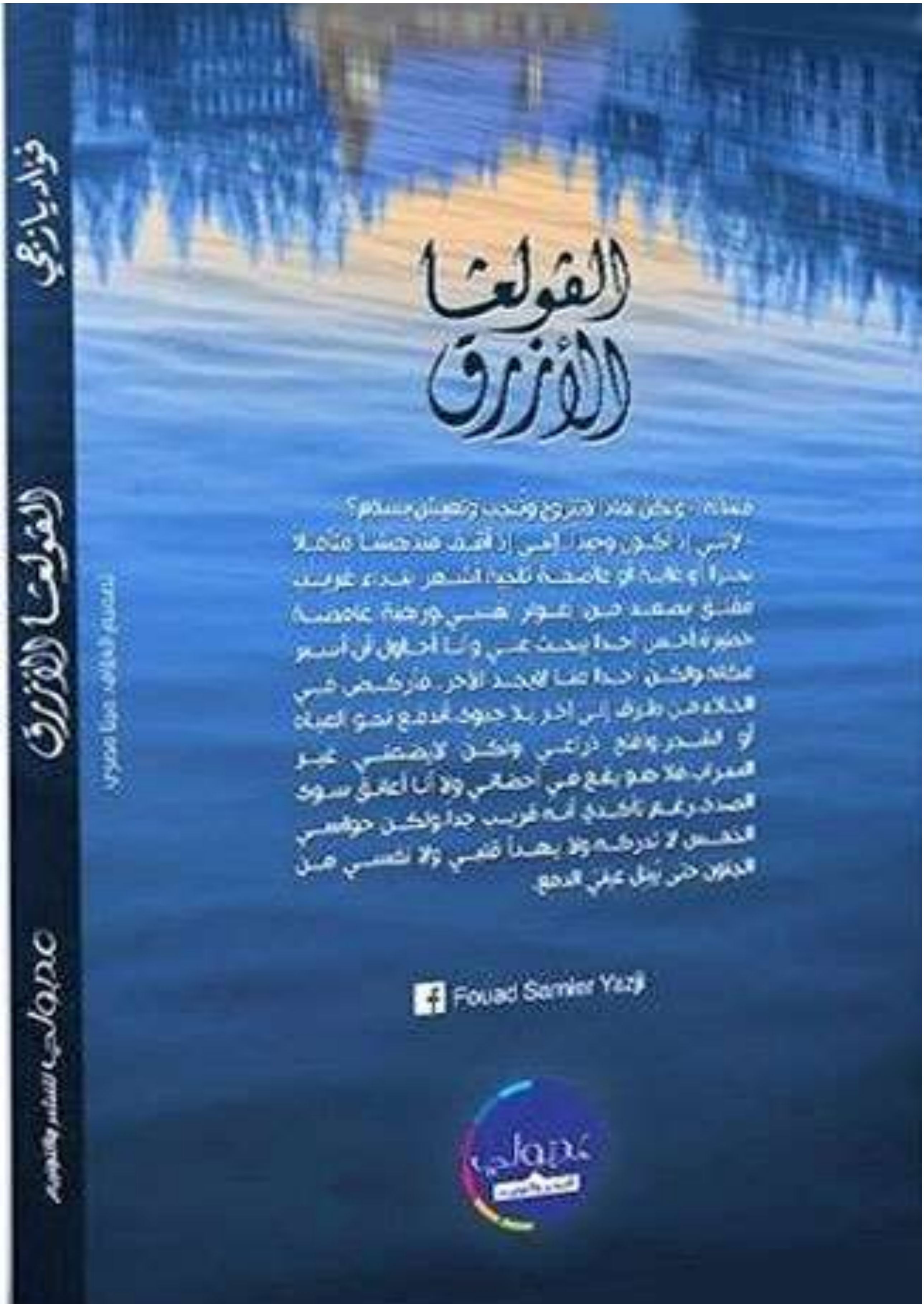
الفولغا
الأزرق
Fouad Semier Yazji
فؤاد يازجي
الفولغا الأزرق
عدوليس للنشر والتوزيع